تَجرِبةُ السِّجنِ فِي الشِّعرِ الأُمَوِيّ

د. محمد دوابشة*

* أستاذ مساعد، كلية العلوم والآداب – الجامعة العربية الأمريكية ، جنين، فلسطين .

ملخص:

يُناقِشُ هَذَا البَحْثُ العَلاقَةَ بَيْنَ السِّجْنِ وَالسَّجِيْنِ ، وَعَلاقَةَ التَّأَثُّرِ وَالتَّأْثِيْرِ بَيْنَهُمَا فِي الشِّعْرِ الأمَوِي ، وَيُحَاوِلُ الكَشْفَ عَمّا خلّفهُ السِّجنُ مِن أَثَرٍ نَفسِيٍّ وَاجتِمَاعِيٍّ عَلَى مَن ابتُلِيَ بِهِ ، وَيُرَكِّزُ عَلَى إبرَازِ صُورَةِ السِّجنِ وَالسَّجِينِ ، وَيُبَيِّنُ أسبَابَ السِّجنِ ، وَمُعَامَلَةَ السَّجِيْنِ وَالأدَوَاتِ المُستَخدَمَةِ فِي تَعذِيبِه ، وَمَوضُوعَاتِ شِعرِهِ ، مُستَنطِقاً النُّصُوصَ الشِّعريَّةَ التِي تَنتَمِي إِلَى ذَلِكَ العَصْرِ ، مُعتَمِداً المَنْهَجَ الوَصْفِيّ التَّحلِيْلِيّ فِي تَحلِيلِ الأشْعَارِ وَاستِنطَاقِهَا .

Abstract

The study investigated the relation between prison and prisoner in Umayyad poetry and it's psychological and social impact on those who experienced jail life using descriptive and analytical methodology. The image of prison and prisoner, instruments used for torture, the reasons behind imprisonment and prisoner's poetry were all highlighted.

تمهيد:

تَرتَدّ كَلمةُ السِّجن فِي أصلِها اللُّغويّ إلى الجذْر الثُّلاثِيّ (سَجَنَ)، وَهوَ يَسْجنُ سِجْناً وسَجْناً، والسِّجنُ – بالكسر – المَحْبَس، والمَصْدَرُ السَّجن– بالفَتْح –، قَالَ تَعَالَى ﴿ربِّ السَّجنُ أحبُّ إليّ ممَّا يَدْعُوْنَنِي إلَيْه﴾ وَفِي قِرَاءَة أُخْرَى ﴿قال ربِّ السِّجنُ أحبُّ إليّ ممَّا يَدْعُوْنَنِي إلَيْه﴾(يوسف: آية ٣٣)، وَالسَّجَّان صَاحبُ السِّجن، وَرَجُلٌ سَجِينٌ: بمَعْنَى مَسْجُوُن، وَالجَمعُ سُجَنَاء وَسَجْنَى، وَامرَأَةٌ سَجِينٌ وَسَجِيْنَةٌ، أي مَسجُونَةٌ، وَهوَ الحَبسُ الذي يُحبَسُ أو يُسْجَنُ فِيهِ الشَّخْصُ، وَمعنَاهُ المُطلَقُ الإمسَاكُ وَالمَنعُ، وهوَ اسمُ مَكَانٍ، ونسوةٌ سَجْنَى وَسَجَائِن، وَسَجَنَ الهَمَّ يَسْجِنُهُ إذَا لَم يَبُثّه، قَال الشَّاعِر:

وَلا تَسْجِنَنَّ الهَمَّ إنَّ لِسِجْنِهِ عَنَاءً ،وَحَمِّلْهُ المَهارَى النَّوَاجِيَا

وَسَجِيْن: فَعيْل من السَجْن، وسجّين وادٍ في جهنم (لسان العرب: مادة سَجَن). وَترجعُ كلمةُ الأَسر فِي أَصلِهَا اللّغوي إلى الجذرِ الثُّلاثِيّ (أَسَرَ)، فالهمزةُ وَالسينُ وَالرَّاءُ، أصلٌ وَاحدٌ وقياسٌ مُطَّرِد، وَهوَ الحبسُ وَالإمسَاكُ، وَكَانوا يَشُدون الأسيرَ بِالقِدّ، وَهوَ الإسَار، فَسُمِّيَ كُلُّ أَخِيذٍ، وَإنْ لَم يُؤسَرِ أَسِيراً، قَال الأعْشَى:

وَقَيـدَنِي الشِّعرُ فِي بَيـتِـهِ كَمَا قَيَّدَ الآسِـرَاتُ الحِـمَارَا

(الديوان، د.ت: ٨٦)

والعربُ تَقولُ أَسَرَ قَتَبَه، أيّ شَدَّه، قَال تَعَالَى: " وَشَدَدْنَا أَسْرَهُم " وَيُقَال أَسِيْر، وَيُجْمَعُ عَلى أَسرَى وَأَسَارَى(ابن فارس: مادة أسر)، أما في الاصطلاح ـــ السِّجن أو الأسر –، فهو يعني المكان الذي يقضي فيه المخالف للقوانين والأنظمة والشرائع، مدة معينة ولأسباب شتّى، وجاء الأسير في الشعر بمعنى السجين، لذا سأتعامل معهما من هذا المنظور.

لا يستطيع أحد أن يجزم عن مكان أول سِجن على وجه الأرض، فلا يوجد شواهد تاريخية يُعتمد عليها اعتماداً علمياً، باستثناء ما ورد في الكتاب المقدس،عما فعله أولاد يعقوب بأخيهم يوسف، ومما ورد فيه " فَكَانَ لَمَّا جَاءَ يُوسُفُ إِلَى إِخْوَتِهِ أَنَّهُم خَلَعُوا عَن يُوسُفَ قَمِيْصَهُ، القَمِيْصُ المُلوَّنُ الَّذِي عَلَيْهِ، وَأَخَذُوهُ وَطَرَحُوهُ فِي البِئْرِ، وَأَمَّا البِئْرُ فَكَانَتْ فَارِغَةً لَيْسَ فِيْهَا مَاءٌ (سفر التكوين: الإصحاح ٣٧)، وجاء القرآن الكريم، مؤيدا لما جاء في الكتاب المقدس، في قوله تعالى في سورة يوسف ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي

غَيَابَت الجُبِّ وَأوحَيْنَا إلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِم هَذَا وَهُم لا يَشْعُرُوْن﴾ (يوسف، آية ١٥)، وقد وردت كلمة السجن في سورة يوسف في القرآن الكريم عدة مرات من خلال السرد التاريخي للأحداث السابقة، وهذا دليل على أنه كان موجوداً عند الأمم التي سبقت الإسلام، ولكن ليس بالمفهوم الحالي، وإنما كان يعني البئر والمنع والتغريب والنفي، وكلها كلمات تفيد منع حرية الشخص من ممارسة حياته وحريته الطبيعيتين.

وهناك كثير من المفاهيم والمفردات التي لها علاقة بالسِّجن مثل: الأسْر وَالأسِيْر السِّجْن والسَّجِيْن والحَبْس والقَيْد والكَبُوْل وَالأغْلال والعِقَاب والقَتْل والعَفْو، وكلها مسميات تفيد معنى واحدا، يُقصد بها، إما الشخص الذي وضع في هذا المكان، وإمّا صفة للمكان نفسه، وما يعكسه هذا المكان على الشخص، وعلاقة كل منهما بالآخر. وهذه الكلمات تتردد كثيراً في كتب التاريخ والأدب ذات الصلة، وبخاصة في سردها للأحداث والوقائع عبر السنين والقرون، ومن يتصفح هذه الكتب، وبالذات تاريخ الحضارات والدول القديمة، يجدها ملأى بأخبار كانت تؤدي في غالب الأحيان إلى إيقاع العقوبات بالمذنبين: إما حبساً أو قتلاً أو تعذيباً وتنكيلا، بصرف النظر عن سبب العقوبة. يقترن السجن بالثورات والقلاقل والخروج على السلطة، يتبعه تعذيب وتنكيل، وغير ذلك من صنوف العذاب وأنواع العقاب، وربما لسبب ما، أفضت هذه الأحداث إلى العفو، إن كان للمتهم بقية من عمر.

وجد السجن منذ زمن بعيد، وما زال، لشتى الأسباب ومختلف العقوبات، وكان موجوداً في عصر صدر الإسلام، ولكن ليس بالمفهوم الحديث، روى ابن طلاع أن الرسول الكريم وأبا بكر الصديق، لم يكن لهما سجن، ولم يسجنا أحداً(ابن طلاع، ٩٢: ١٩٧٨)، ولكنه في مكان آخر يقول: إن المصطفى، صلى الله عليه وسلم، عمل به – السجن –، ومن بعده الخلفاء الراشدون (السابق: ٩٤-٩٥). ففي معركة بدر أسر الرسول، عليه السلام، عدداً من الأعداء، فوزعهم على أصحابه، وأوصى بهم قائلاً "استوصوا بالأسارى خيراً" وكان الصحابة يطعمونهم كلما أكلوا، وكان مصيرهم، إما الفدية أو تعليم عشرة من شباب المسلمين القراءة والكتابة(الطبري: ٢/ ٤٦٠-٤٦١)، وروي أيضا أن الرسول الكريم حبس مجموعة من بني قريضة في دار بنت الحارث(ابن هشام: ٣/ ٢٥١)، وقيل إنه عليه السلام قضى بالضرب وبالسجن (ابن طلاع: ٩٦). وكان الهدف من السجن تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه، سواء أكان ذلك في البيت أم كان في المسجد أو في غيرهما، ولم يكن زمن الرسول أو زمن خليفته الأول مكانٌ خاصٌ ومجهزٌ لهذا الغرض.

ولما اتسعت رقعة الخلافة الإسلامية زمن الخليفة عمر، رضي الله عنه، وافتتحت ديار الروم

والفرس، اتخذ الخليفة عمر مكاناً خاصا للسجن، وهو أول من خصص مكاناً ؛ ليوضع فيه السجناء، عندما اشترى داراً، كانت لصفوان بن أمية، اشتراها له نافع بن الحارث الخزامي -أمير مكة- بأربعة آلاف درهم ؛ خصصها للسجناء (ابن طلاع، ٩٢ : ١٩٧٨)، فقد حبس الحطيئة الشاعر ؛ بسبب هجائه المشهور للزبرقان بن بدر في قصيدة طويلة، ومنها :

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَل لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فإنك أنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

(الديوان،د.ت:١٠٨)

فقال الحطيئة مستعطفاً، وهو في سجنهِ :

مَاذَا تَقُولُ لأفْرَاخٍ بِذِي مَرَخٍ حُمْرُ الحَوَاصِلِ لا مَاءٌ وَلاَ شَجَرُ

(الديوان، د.ت: ١٦٤)

وأصبحت الحاجة ملحة إلى السجن في زمن الخليفة الثالث، وبخاصة في النصف الثاني من حكمه ؛ بسبب الفتن والثورات التي أدت في النهاية إلى مقتله، فقد حبس عثمانُ عبدالرحمنَ الجُمَحِي، وكان الأخير قد هجاه ؛ لأن عثمان أعطى خُمس إفريقيا من الفَيْء لمروان بن الحكم، فأمر عثمان بحبسه، فقال عبدالرحمن، وهو في سجنه، يستنجد علياً لإطلاق سراحه :

إلَى اللهِ أشكُو لا إلَى الناسِ مَا عَدَا أبَا حَسَنٍ غَلا شَدَيداً أُكَابِدُهْ

بِخَيبرَ فِي قَعْرِ الغمُوصِ كَأنَّها جَوانِبُ قَبرٍ أَعمَقِ اللحدِ لاحِدُهْ

(العسقلاني: ٢ /٣٨٨)

روى الطبري أن عثمان كان لا يتردد في حبس المخالفين، بعد تعزيرهم (الطبري : ٤/ ٤٠٢)، فقد هجا ضابيء بن الحارث البرجمي بعض بني جرول بن نهشل، فاستعدوا عليه عثمان بن عفان، فاغتاظ ضابيء، وهم باغتيال الخليفة، فأمرعثمان بسجنه، فسجنه، وبقي في سجنه حتى مات فيه، ومما قال في سجنه :

وَلا خَيرَ فِيمَن يُوَطِّنُ نَفْسَهُ عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حَينَ تَنُوبُ (ابن قتيبة، ١ : ١٩٦٤/ ٢٦٧-٢٦٨)

وفي زمن الخليفة علي، كرم الله وجهه، كانت الأوضاع مضطربة جداً، وبخاصة بعد مقتل الخليفة الثالث، فكانت الحاجة ملحة أكثر للسجن؛ نظراً للحروب والفتن الداخلية والخارجية، وظهور الأحزاب، فالنتيجة المنطقية، أن تكون هناك الوسائل المناسبة؛ لمعاقبة المخالفين والثائرين ونشر الاستقرار والأمن، ومنها السجن. تشير الروايات إلى أن علياً بن أبي طالب، هو أول من خصص مكانا خاصا لهذا الغرض بالعراق، سُمِّيَ " نافعٌ "، وآخر

سُمِّيَ " المخيِّس " ، وقال فيه :

أما تَرَانِي كَيِّساً مُكَيِّســاً	**بَـنَـيـتُ بَـعـدَ نَـافِـعٍ مُـخَـيِّـساً**
حِـصْنـاً حَـصِيْـنــاً	**وَأمِــــيْــنـــاً كَــيِّــسَـــا**

(ابن طلاع،١٩٧٨:٩٩)

فاتساع الدولة الإسلامية ، وما رافقها من بروز حركات وثورات وفتن ومعارضة ، وازدياد الطموح الشخصي أحيانا ، هذه الأمور مجتمعة وغيرها ، كانت السبب في تخصيص مكان خاص للخارجين على الدولة وتعاليمها وأهدافها ، وهذا المكان ، هو السجن .

البحث:

إن العصف السياسي الذي ميز العصر الأموي ، انعكس على الناس وحياتهم ، فظهور الأحزاب وانقسامها ، والفتن وما رافقها ، أدى إلى أوضاع غير مستقرة ، لذلك لم يتردد الخلفاء وولاتهم في معاقبة كل من يخرج على الدولة ، وربما كان السجن أخف العقوبات في هذا العصر ، لذلك تطورت السجون في العصر الأموي ؛ بسبب المعارضة ، وما انعكس عنها من نزاع سياسي وفكري ، فبرزت أهميتها ، وأصبحت الحاجة إليها وتطويرها أمرا مهما ؛ لحبس المعارضين وأصحاب الثورات ، بالإضافة إلى ذلك ، كان للخلافات والعصبيات القبلية ، والقتل والسرقة وكثرة الأحزاب ، أثره الكبير للاهتمام بها وتنظيم إدارتها .

وتجربة السجن تعكس عالما مليئا بالآلام والآمال ، وأي تجربة أكثر وقعاً ، وأوضح أثراً في نفس الإنسان من هذه التجربة ، فليس أصعب على الإنسان من أن تحتجز حريته ، وتُستلب إرادته ، ويصبح مصيره في يد المجهول ، فلا يدري ، هل هو الموت قتلاً بالسيف ، أم بعد تنكيل بقطع الأطراف ، أم سيكون تحت ثقل الحديد الأصم ، إنها تملك على الإنسان إحساسه وتحمله على الكلام ؛ هذه التجربة ، فيها من الأمور غير المألوفة ، ما يشيب لهولها الصغير ويفزع من بطشها الكبير . لهذا ، كان السجن عند من ابتلي به يوازي القبر ، يرى فيه المحبوس الموت مع كل زفرة ، فترى المحبوس يناجي نفسه ، متأملاً بها ، وبما حوله من دنياه ، ويذهب في خياله يُسَرِّي عن نفسه ، ويحاول طمأنتها . أما أسباب دخول الناس السجن فهي كثيرة ومتشعبة ومتداخلة ، يأتي في مقدمتها الأسباب السياسية ، تليها الدينية ثم الشخصية ، إضافة إلى غيرها من الأسباب ، مع العلم أن الاتهام أحيانا ، قد يكون فيه شيء كثير من التغطية على الهدف الصحيح والسبب المباشر .

أسباب السجن:

١- أسباب سياسية:

قامت الدولة الأموية عام ٤١هـ، عندما اضطر الحسن إلى التنحي عن الخلافة، بعد أن خذله أهل العراق، وأيقن أنه لا طاقة له بمعاوية، وبذلك استقرت الخلافة في البيت الأموي، الذي كان يطمع لها معاوية، منذ زمن، روى المقريزي فقال: قال معاوية: ما زلت أطمع في الخلافة منذ قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إن ملكت يا معاوية فأحسن" (المقريزي: ٧٨).

ولم يكن لهذه الخلافة الطابع الكامل الذي كان للخلفاء الراشدين من قبل، فقد أصبحت ملكية في مظهرها ونظامها، ولا يميزها عن ملكية الفرس والروم إلا انضواؤها تحت لواء الإسلام وأخذها بأحكامه (الحوفي: ٢٤)، واستحدث معاوية نظام وراثة الملك، وهذا كان أحد أسباب المعارضة السياسية، الذي لم يرض عنها كثير من الأحزاب، فوقفت في الجانب المعارض للدولة الأموية، فجعلت الدولة تلقي بكل من يعارضها بالسجن، حتى أن الباحث لا يستطيع أن يجزم – أحيانا – بالسبب المباشر من غير المباشر، الذي وضع الشخص بسببه في السجن، فتختلط عليه الأسباب السياسية بالدينية بالشخصية، ولكن يبقى السبب السياسي خلف تلك الأحداث، وهو محركها، ويأتي في مقدمة الأسباب السياسية المعارضة السياسية.

تمتاز المعارضة السياسية– بكل زمان ومكان – بحظ وافر من البصيرة وحسن الرأي، وبنزعة قوية في حب السلطة والوصول إليها، والقدرة القيادية، فإذا اجتمعت لها فنون الخطابة مع الشعر، في عصر، مثل العصر الأموي، كانت قدرته على التأثير قوية فعالة، تلهب مشاعر أنصاره، وتجمعهم حوله قوة مرهوبة الجانب (السويدي: ٨٩). وكانت المعارضة السياسية من أشد موجبات السجن في العصر الأموي، بل ولربما لم يكتف الحاكم بسجن الشخص وتقييد حركته، وإنما قد يصل به الأمر إلى قتله بطريقة يندى لها جبين الإنسان العربي المسلم.

وكان السجن زمن معاوية، يقع في عاصمة الخلافة، أو ما يعرف بدار الإمارة، الواقعة جنوب المسجد الجامع، وكانت تحوي الحبوس والشرطة، وكان يحوي أكثر من حجرة لإيواء السجناء (المسعودي: ٢٦١)، وهو أول من خصص الحرس لحراسة السجناء، وأول من حبس النساء بجرائر الرجال (اليعقوبي: ٢/ ٢٣٢)، وحبس يزيد بن معاوية أتباع الحسين بن علي في سجون البصرة عند عبيد الله بن زياد، وأثقلوا بالحديد. ولما قام عبدالله بن الزبير مطالبا بالخلافة، سمّى نفسه العائذ، وحبس محمد بن الحنفية مع خمسة عشر رجلا من بني هاشم، وقال: لتبايعنِّي أو لأحرقنَّكم(اليعقوبي: ٢/ ٢٦١)، وفيه يقول كُثَيِّر عزة:

تُخَبِّرُ مَن لاقَيْتَ أَنَّك عَائِذٌ بَل العَائِذُ المَظلُومُ فِي سِجْنِ عَارِمِ

(الديوان: ٣١٤)

أورد المسعودي أن ابن الزُّبَير عمد إلى مَن بِمَكَّةَ مِن بني هاشم ؛ فحصرهم في الشعب -شعب بني هاشم - ويقال إنه حصرهم في حظائر المسجد، أو في حجرة زمزم بمكة(المسعودي: ٣/ ٢٧٥)، وأبرز من مثل المطامح السياسية، وأراد الوصول إليها المختار الثقفي، التي بسببها لقي الويلات، يقول: " إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزُّبَير انتزى على الحجاز، ومروان على الشام، ونجدة على اليمامة، فلم أكن دون أحدهم " (البلاذري: ٥/ ٢٦١). وكذلك عبيدالله بن الحر في صراعه مع الأمويين، فقد كان يطمح في أن يتبوأ مركزا سياسيا، ويكون من رجال الحكم البارزين، ولذلك بايع المختار الثقفي، فلما خاب ظنه عند المختار، تركه، وتقرب من عبدالله بن الزبير(عطوان: ١٩٩).

وكان السجن أحد وسائل الحجاج في تثبيت حكم الأمويين، فقد اتخذ سجونا كثيرة، ذكر المبرد: "أن الحجاج كان يتفقد المحبوسين، فكان يحبسهم نهاراً، ثم يفتح الحبس ليلاً، فينسل الناس إلى ناحية المهلب بن أبي صفرة - الذي كان هو الآخر محبوسا فيه - وكأن الحجاج لا يعلم" (المبرد: ٣/ ٣٦٩). ولم تسلم النساء من السجن، فقد حبس المختار بن أبي عبيد الله الثقفي زوجة عبيد الله بن الحَرّ في سجن الكوفة، فهاجم الحرّ الكوفة، وكسر سجنها، وأخرج زوجته وكل من كان فيه (الطبري: ٦/ ١٢٨-١٢٩)، يقول في ذلك:

أَلَـمْ تَعلَمِـي يـا أُم تَـوبَـةَ أَنَّنِـي أَنَا الفَارسُ الحَامِي حقائق مذحَجِ

وَإِنّي صَبحتُ السجنَ فِي رَونقِ الضُّحَى بِكلِّ فَتـىً حَـامِي الـذِّمارِ مُدجَّجِ

(القيسي: ١/ ٩٩)

وكانت السلطة تحاسب الشاعر على أبيات قالها سابقا، حتى لو تراجع عنها، خوفا أو قناعة، فالآن جاء دور الوالي أو الخليفة ؛ ليقتص منه، بالعمل وليس القول، روى المسعودي، فقال: لما انهزم ابن الأشعث بدير الجماجم، حلف الحجاج ألا يُؤتَى بأسير إلا ضرب عنقه، فأُتي بأسرى كثيرة، وكان أول من أُتي به أعشى همدان الشاعر، وهو أول من خلع عبدالملك والحجاج بين يدي ابن الأشعث بسجستان، فقال له الحجاج: أنت القائل:

فَمَن مُبْلِغُ الحَجَّاجِ أنِّـي قَـد جَـنَـيْتُ عَـلَيْهِ حَـرْبَـاً

قال: لا، ولكني الذي أقول:

أبَى اللهُ إلا أنْ يُتمِمَّ نُـورَهُ وَيُطْفِىءَ نُورَ الفاسقين فَيُخْمَدَا

وَيُنزِلَ ذُلاً بِالعِرَاقِ وَأهِلِـهِ بِمَا نَقَضُوا العَهدَ الوَثِيقَ المُؤَكَّدَا

فقال الحجاج: لسنا نحمدك على هذا القول، إنما قلته تأسفا، وأمر بقتله (التنوخي: ٢/ ٥٧).

وكان العرجي يهجو محمد بن هشام ويتغزل في زوجته، فلم يزل محمد مضطغنا عليه من هذه الأشعار، وطالبا له، حتى أمسك به، فأخذه وقيّده وضربه، وأقامه للناس، ثم حبسه، وأقسم: لا يخرج من الحبس ما دام لي سلطان، فمكث في حبسه نحوا من تسع سنين حتى مات فيه(الأصفهاني: ١/ ٣١٣، ٣١٦)، وهذا النوع من الهجاء مزج العرجي فيه السياسة بالدين، فقد حاول الوصول للسلطة، وله من الشرف والنسب ما يؤهله لذلك، ولكن الدولة منعته من تحقيق مراده، فنقم على الأمويين، فراح يهجوهم ويتغزل في نسائهم، يقول في جبرة المخزومية، زوجة محمد بن هشام:

عُوجِي عَلَيَّ فسَلِّمِي جَبْرُ فِيمَ الصُّدودُ؟ وَأنتُم سَفْرُ

(الديوان: ٤٢)

ومن الأمور التي كانت سبباً في سجن ابن مفرغ، ما قاله من هجاء لاذع في زياد بن أبيه وأولاده، وبخاصة عبيدالله وعباد، ومنه:

أَلا قَبَّحَ الإلَهُ بَنِي زِيَادٍ وَصِيّ أَبِيهِم قُبْحَ الحِمَارِ

(الديوان،١٩٧٥: ١٤٣)

وقال بعد قتل عبيد الله بن زياد:

لا تَقبَلُ الأرضُ مَوتَاهُم إذَا قُبِرُوا وَكَيفَ تَقبَلُ رِجْساً بَينَ أثوَاب

(الديوان،١٩٧٥: ٨٤)

لذلك لقي من أسرة زياد العذاب والتشهير والتنكيل، فقد هجا عباد بن زياد بن أبي سفيان والي سجستان وطعنه في نسبه، فأحنقه وأخاه عبيد الله والي البصرة، كما أغضب بذاك الخليفة معاوية، فأذن لهما بتأديبه، فأخذاه بعذاب شديد وقاس، وشعره داخل السجن، يوحي بأن العصبية القبلية، كانت من وراء بلية الشاعر وإهانته، وأنه كان ضحية التنافس السياسي بين بعض وجهاء قريش وآل زياد (أنساب الأشراف: ٥/ ٧٧-٨٠).

وحبس مروان بن محمد إبراهيم بن محمد بن علي، إمام العباسيين، ومعه أهل بيته في سجن حرّان، ثم قُتل مع عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وكان معه في السجن، وقيل إنه توفي في سجن حرّان في وباء الطاعون، وقيل مات مسموما في سجن حرّان، وفيه يقول

الشاعر :

قَد كُنتُ أحْسَبُنِي جَلداً فَضَعْضَعَنِي	**قَبْرٌ بِحَرَّانَ فِيهِ عِصمَةُ الدِّيـنْ**
فِيْـهِ الإِمَـامُ وَخَيـرُ النّـاسِ كُلِّهِم	**بَيَن الصَّفَائِحِ وَالأحَجارِ وَالطِّيْنِ**

(الطبري: ٧/ ٤٣٧)

فكانت حياة المعارضين السياسيين مغامرة سياسية مستمرة، فيها من الاضطراب والقلق والمعاناة، فكما أن للسلطة مذاقها المميز، فإن لها جحيماً وصراعاً خفياً مريراً، زج بمعظم معارضي السلطة للموت في السجون الرطبة المظلمة وعلى آلات التعذيب والتنكيل. وهناك كثير من الأسباب التي يختلط فيها السبب السياسي بالشخصي، كما هو الأمر بين الأحوص وأبي بكر بن حزم، فهي خصومة شخصية في بدايتها اختلطت مع القضايا السياسية، فابن حزم، والي المدينة وقاضيها - جاء هجاء الأحوص له شخصياً، ولكن هذا الهجاء جاء بألوان سياسية، لأن الأحوص كان من المقربين للخلفاء الأمويين، وهذا ما جعل هجاءه لابن حزم، يتناول بعض الأعمال العدائية التي نفذها أجداد ابن حزم ضد الأمويين، فحرص الخليفة على معاقبته والإيقاع به (ابن سعد : ٢٧٠).

كان الخليفة أو الوالي يأمر بسجن الخارج عن الدولة وتعاليمها، التي هي تعاليم الدين الإسلامي، وأحيانا كان الأمر بيد الخليفة وحده، فعندما رحل يزيد بن مفرغ إلى البصرة، ولم يستطع عبيد الله الإقدام عليه، حتى استأذن معاوية، فأذن له بتأديبه، بعد أن أحفظه عليه، وإذ ذاك طلبه حتى عثر عليه، ولم يحمه منه في البصرة جوار قبلي، فقال شعرا ومعاوية يعذبه، يكشف عن عمق المعاناة التي عومل بها (الديوان: ١٢٩). وقد اتخذ الأمويون جزيرة دهلك منفى لبعض الخصوم، والخارجين على الدولة، فكان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها، ويبدو أنها كانت أشبه بالسجن الكبير، يقول الشاعر فيها :

وَأَقبِـح بِدَهلِكَ مِن بَلـدةٍ	**فَكُـلُّ امـرىءٍ حَلَّهَا هَالِكُ**
كَفَاكَ دَليلاً عَلَى الرَّغمِ أنَّهَا	**جَحِيـمٌ وَخَازِنُـهَا مَالِكُ**

(ياقوت، مادة دهلك)

وأحيانا كان يحبس الشخص لسبب بسيط، روى ابن عبد ربه عن الأصمعي، فقال : " عرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفا لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب، ووجد فيهم أعرابي أخذ يبول في أصل مدينة واسط، فكان فيمن أطلق " (ابن عبد ربه: ٤/ ٣٦)، قال أبو سعيد البقّال : كنت محبوساً في ديماس الحجاج ومعنا

إبراهيم التيمي، فبات في السجن، فأتى رجل، فقال له: يا أبا إسحاق في أي شيء حُبست؟ فقال: جاء العريف، فتبرّأ مني، وقال: إن هذا كثير الصوم والصلاة، وأخاف أنه يرى رأي الخوارج(التنوخي: ١/ ٢٦١)، وروي أيضا عن النضر بن شمير، فقال: " سمعت هشاما يقول: احصوا من قتل الحجاج صبرا، فوجدوهم مائة ألف وعشرين ألفا "(ابن عبد ربه: ٤/ ٣٦، ٤٠)، وأمر سليمان بن عبد الملك عامله على المدينة، أن يحضر له الأحوص، فأحضره، ثم أمر بنفيه إلى دهلك، فلم يزل بها إلى أيام يزيد فرده (الأصفهاني: ٤/ ٤٢١).

وكان الشاعر يغرق في المبالغة عند حديثه عن التعذيب والتنكيل، فأرى أن الفرزدق مال إلى المبالغة والتهويل في قوله، وهو في سجن خالد بن عبد الله القسري بالعراق:

يقولُ لِي الحَدَّادُ هَل أَنتَ قَائِمٌ وَهَـل أَنَـا إلا مِـثـلُ آخَـرِ قَـاعِـدِ
كَأنِّي حَرورِي لَهُ فَوقَ كَعبـهِ ثـلاثـون قيداً مِن قُروص مَلاكدِ

(الديوان: ١/ ١٣٣)

ومن الأسباب التي امتزج فيها السبب الديني بالسياسي، هجاء ابن مفرغ الحميري للأمويين، وبخاصة زياد بن أبيه وأولاده، إذ طعن في عرضهم ونسبهم، فسياسي؛ لأنه لم ير فيهم الرجال الأكفياء للدولة وسياستها، فعاقبته الدولة عليه، وديني؛ لأن الإسلام نهى عن التهاجي والطعن في أعراض المسلمين، وكان ابن مفرغ يلجأ إلى المقارنة بين سعيد بن عثمان – والي خراسان – وعباد بن زياد؛ لإيذائه نفسياً، والوصول إلى صورة ساخرة، مضحكة، أقرب ما تكون إلى الصورة (الكاريكاتورية) في أيامنا هذه، يقول:

إنَّ تَـركِـي نَـدَى سَـعيدِ بـن عثما نَ نَـاصِـري وَعـديـدِي
وَاتـبَـاعِـي أخَـا الـرضاعـة وَاللؤ م لَـنَـقـصٌ وفـوت شَـأو بـعـيـدِ
قـلـتُ وَالـلـيـلُ مُـطـبـقٌ بـعــراه لَـيـتـنـي مُـتّ قـبـلَ تـركِ سعيدِ
ليتني مِتّ قَبلَ تَركِي أخَا النَّجـدةِ وَالحـزم والـفـعَـال الـشَّـديـدِ
عَـبـشَـمِـيّ أبـوهُ عَبـدُ مُـنـاف فَـازَ مِـنـهَـا بـتَـاجِـهَـا المَـعـقـودِ
ثُـمَّ جـود لَـو قِـيـلَ: فِـيـهِ مَـزِيـدٌ قُـلـتُ لِـلسـائـلِـيـنَ: مَـا مِـن مَـزِيـدِ

(الديوان: ١٠٩–١١٠)

وقد حققت بعض الظواهر الأسلوبية والنحوية غايتها، مثل تكرار أداة الاستفهام " أين " في قول يزيد بن مفرغ الحميري:

دَارَ سَلمَى بالخَبت ذي الأطلال ... كَيفَ نَومُ الأسير في الأغلال
أينَ منّي السَّلامُ مِن بَعد نَأيَ ... فارجعي لي تَحيَّتي وَسُؤالِيَ
أينَ منّي نَجائبي وَجيَادِيَ ... وَغَزالي سَقَى الإلهُ غَزالي
أينَ لا أينَ جُنتَي وَسِلاحي ... وَمطَايَا سَيَّرتها لارتحالي
ثُمَّ جود لَو قيلَ: فيه مَزيدٌ ... قُلتُ لِلسائلينَ: مَا مِن مَزيدِ

(الديوان، ١٨٥:١٩٧٥)

فالشاعر يوظف أداة الاستفهام من خلال تكرارها ؛ ليحقق غرضاً إيحائيا، يرتبط بالمعنى والفكرة والخيال والإيقاع، بهدف التنفيس عما يجول بخاطره من الكبت واليأس والاكتئاب الذي يكاد يخنقه، كما يساهم الاستفهام في رسم الدائرة الكبيرة المغلقة التي تطبق على الشاعر، فتبدأ القصيدة باستفهام وتنتهي بالاستفهام ذاته :

وَأطلتُم مَعَ العقوبةِ سَجنِي ... فَكَم السِّجنُ أَو مَتَى إرسَالِي؟؟!

(السابق:١٨٨)

حج محمد بن هشام – والي مكة والمدينة أيام هشام – بالناس، فهجاه العرجي بقوله :

دَعُوا الحَجِّ لا تَستَهلِكُوا نَفَقَاتِكُم ... فَمَا حَجُّ هَذَا العَامِ بِالمُتَقَبَّلِ

(الديوان: ٣١٨)

لقد تفنن عبيدالله في تعذيب يزيد بن مفرغ بعد مطاردة عنيفة، التجأ الشاعر خلالها من مكان إلى آخر، من البصرة إلى الشام ؛ للنجاة من قبضته، حتى إذا وقع أذاقه أنواعاً من العذاب والتنكيل الذي لا يوصف، فقد أمره بمحو ما كتبه من هجاء على الجدران بأظافره، فإذا ذهبت أظافره محاه بعظام أصابعه ودمه، وهو يصف محنته وتعذيبه في هذه الأبيات :

أَصَابَ عَذابِي اللونَ فاللونُ شَاحِبُ ... كَمَا الرأسُ من هَولِ المَنِيَّةِ أَشيَبُ
قُرِنتُ بِخنزِيرٍ وَهِرٍّ وَكَلبةٍ ... زَمَاناً وَشَانَ الجلدَ ضَربٌ مُشذِّبُ
وَجُرعتها صهباء من غير لذةٍ ... تُصعِّد في الجثمان ثُم تصوبُ
وَأُطعِمتُ مَا إنْ لا يَحِلُّ لآكِلٍ ... وَصَلَّيتُ شَرقاً بَيتَ مَكةَ مَغرِبُ
مِن الطَّفِّ مَجلُوباً إلى أرضِ كَابُلٍ ... فَمَلُّوا وَمَا مَلَّ الأسيرُ المُعَذَّبُ

(الديوان:٥٥– ٥٧)

وأبدى الشاعر تجلداً وصبراً، ولم يزدد إلا استهانة بآل زياد على ما هو فيه من الابتلاء، موقنا أن القرشيين حلفاءه مستنقذوه مراغمة لعبيد الله، بما لهم من جاه وتأثير عند الخليفة.

وكان إبراهيم بن العربي والياً على اليمامة زمن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وهي بعيدة عن عاصمة الملك، فكافح فيها اللصوص، ونشر الأمن، وأقر النظام حتى خشيه العصاة، فلمااستخلف سليمان، وثب عليه أعداؤه وأثقلوه بالحديد، وسيروه إلى سجن المدينة، فأمكنهم من نفسه؛ خوفا من عصيان الخليفة، ولكن ما لبث أن تبين أن آسريه الحقيقيين، هم خصومه المشاغبون عليه، وليس للخليفة من أرب في حبسه، إلا تنصيب أنصاره على الأقاليم، فتمنى لو توارى عن الأنظار في فجاج الأرض، وهو الخبير بدروبها، ولم يستسلم لهم، فقبض عليه، وحمّل إلى المدينة أسيراً، فلما مرّ بسلع، قال:

لَعمركَ إنِّـي يـومَ سَـلـع للائـم	لِنفسي، وَلكـن مَـا يـرد التلـومُ
أأمكنتُ مِـن نَفـسِي عَدوِّي ضلـةً	ألَهفاً عَلَى مَا فَاتَ لَو كُنتُ أعلَمُ
لَو أنّ صدورَ الأمرِ يُبدونَ لِلفَتَـى	كَأعقَابِـه لَـم تلفُـهُ يتنَـدّمُ
لَعمرِي لَقد مَكنّت فِجاجٌ عَريضـةٌ	وَلَيـلٌ سُخَـامِيّ الجَنَاحَيـنِ مظلمُ
إذَا الأرضُ لَم يَجهَل عَلَي فُروجِها	وَإذ لِـي مَـن دارِ المـذّلـة مَرغـمُ

(ياقوت: مادة سَلَعَ)

٢- العصبية القبلية

العصبية، أن يعمل الشخص لعصبيته، ويدعو لها، ظالمة أو مظلومة والقبيلة نسبة إلى قبيلة، والقبيلة جمعها قبائل واشتق الزّجاج القبائل من قبائل الشجر، أي أعضائها، ويقال رأيتُ قبائل من الطير، أي أصنافاً، قال الراعي النميري:

رأيـتَ رُدَافَـي فَـوقَـهَـا مـن قبيلـةٍ	مِـن الـطَّيـرِ يَـدعـوهـا أَحَـمُّ شَـهـوجُ

(الديوان: ٢٦)

وتعني عند الإنسان السيطرة، وهي نزعة داخلية عنده، وما نزعات الحرية والإرادة والعزم والأنانية والظلم إلا مظاهرها أو بعض مظاهرها (فهمي: ٣١). وكانت القبيلة ومنزلتها في العصر الأموي أوسع كيان وطني يومذاك، وكان الشعور القبلي العام لا يقضي على ذاتية الشاعر ورغباته وتطلعاته الخاصة، بل كانت تترعرع في حماه، ومن ثم كان " للعصبية القبلية دورها الفعال في إثارة الفتن والحروب في مختلف الأقطار" (البزرة: ١٥٨-١٥٩)، والعصبية قد تكون لسبب فكري أو قبلي أو سياسي، لذلك لم يكن ظهور العصبية في العصر الأموي

أمرا مستغربا، ولكن ما يلفت الانتباه " أنها بلغت من الحدة والعنفوان مدى لم تبلغه في العصور السابقة، وتوافر لها من دواعي الاشتداد والإثارة فيه، ما لم يتوافر لها مثله في سائر العصور " (النص: ٢٥١)، فكان كتاب الخليفة بالولاية أو العزل قرار النصر لقبيلة وهزيمة لأخرى، وهو الأذن بأن يأخذ الخصم من خصمه ما شاء من العذاب، فما العصبية بين الأمويين والزبيريين، إلا صراع بين القيسية واليمانية، فقد تعصبت اليمن ليزيد بن معاوية ؛ لأن أمه يمنية، وتعصبت قيس لابن الزبير؛ لأنه ابن قبيلتهم، فورثوا هذه العصبية عن آبائهم، عصبية القيسية على اليمنية(فهمي: ٤٢). فنهض هشام باليمانية والوليد بن يزيد بالقيسية ويزيد بن الوليد انتصر لليمانية ومروان بن محمد للقيسية(فهمي: ٤٨– ٥٢).

لذلك اتسم حكم الأمويين بشكل عام بالعصبية " عصبية العرب عامة ضد العجم والموالي، وعصبية لليمنية على القيسية، وعصبية لبني أمية على بني هاشم، وعصبية للموالي لهم على المناوئة، كعصبيتهم لكلب وتغلب على قيس " (الطبري: ٦/ ١٣٤)، ونحن نعرف ما للشعر من سلطان على نفس العربي الغضوب السريع الانفعال، والكلمة التي تمس موطن الحمية والأنفة منه، تحيله شعلة متأججة من الغضب والهياج (النص، د.ت: ٣٧٨) وكان يزيد بن معاوية أشدهم تعصبا على بني هاشم، لما كان بين البيتين من منافسة وعداء في الجاهلية والإسلام، فهو لم ينس ما حل بأجداده في معركة بدر، فعندما انتصر على أهل المدينة، بعدما ثاروا عليه، تمثل – متشفيا – يقول ابن الزِّبعرى:

ليتَ أشيَاخِي بِبَدرٍ شَهدُوا جَزعِ الخَزرَجِ مِن وَقعِ الأسَلْ
لاستطالُوا وَاستهلُّوا فَرَحَاً ثُمَّ قَالُوا يَا يَزِيدُ لا تَسَلْ
قد قَتَلنَا الغُرّ مِن سَادِاتِهِم وَعَدَلنَاه بِبَدْرٍ فَاعتَدَلْ

(المقريزي: ١٢٧)

وهذه العصبية التي أوجدها الأمويون وبقوة –كان الإسلام قد دفنها ردحاً من الزمن– ساعدت في زوال دولتهم، فكان من نتائجها الانتقام الأعمى الغشوم، الذي لا يتورع عن نكال وقتل، وقد أبطل من حسبانه الاعتبارات الإنسانية والأخوية، فكم من إخوان جمعت بينهم دروب الجهاد والغزو، وألفت بينهم قلوبهم على المحبة، ثم فرقتهم العصبية أعداء، فأمسك بعضهم ببعض في السجون، حتى عفا العداء على سابقة المودة، وأكثر ما كانت العصبية بين الأمويين والهاشميين، وهم في الأصل أتباع معاوية وأتباع علي، الممتدة جذورها إلى ما قبل الإسلام، فأصبح لسان حالهم يقول:

عَبدُ شَـمـسٍ قَد أَضرَمَت لِبَنِـي هَــا شِـم حَـربَـاً يَـشِـيبُ مِنـهَا الـوَلِـيدُ
فَابنُ حَـربٍ لِلمُصطَفَى وَابنُ هِنـدٍ لِـــعَـلِـيٍّ وَلِـلْـحُــسَـينِ يَـــزِيـدُ
(المقريزي: ٥٩)

وما الأمر إلا كما قال الأخطل:

إنَّ الضَّغِينَةَ تَلقَاهَا وَإنْ قَدُمَتْ كَالـعُرّ يَكمُنُ حِينـاً ثُـمَّ يَنْتَشِرُ

(الأخطل: ١ / ٢٣٠)

روى البلاذري فقال: "مات الوليد بن عبد الملك، وولي سليمان بن عبد الملك، وكان في نفسه الكثير على الحجاج، وكان قد مات، فصب انتقامه على بيته وأعوانه، فولى الهند بعض اليمنيين من خصوم الحجاج، فاستعمل صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق، وولى يزيد بن أبي كبشة السند، فحمل محمد بن القاسم مقيداً إلى صالح في العراق، فقال محمد متمثلا:

أَضَاعُونِي وَأَيّ فَتَىً أَضَاعُوا لِـيَـومِ كَـرِيـهَـةٍ وَسَـــدادِ ثَـغـرِ

ولم يلتفت إلى مطالب أهل السند في الإفراج عنه، وقال في سجنه:

فَلَئِن ثَوَيتُ بِوَاسِط وَبِأَرضِهَا رَهــنَ الحَـدِيـدِ مُكَبَّـلاً مَغلُـولا
فَلَرُبَّ فِتْيَة فَارِس قد رَعتهَــا وَلَـــرُبَّ قَـرن قَـد تَـرَكـت قتِـيـ

(البلاذري: ٦١٨)

فقد عادت العصبية لسابق عهدها، وأشدّ، حتى بلغ الأمر ببني أمية أن يفضلوا خليفتهم – هشام بن عبد الملك – على النبي الكريم (المقريزي: ٦٩). وأصبحت أبسط الأمور وأدناها تثير النعرات القديمة، فقد قيد الحجاج دراج بن زرعة، وأرسله إلى عبدالملك في دمشق، وسجن هناك؛ بسبب مشاجرة فردية على ماءٍ، أدت إلى فتنة بين الضبابيين والجعفريين، كادت تقوم حرب، ربما لا تحمد عقباها، فقال في سجنه:

وَلَمَّـــا دَخَلْـتُ السِّـجنَ أيقَـنتُ أَنَـهُ هُـوَ البَينُ لا بَـيْنِ النَّوى ثُـمَّ يَجمَعُ
وَمَا السَّوطُ أبكَانِي وَلا السِّجنُ شَفَّنِي وَلكنَّنِي مِن رَهْبَـةِ المَوتِ أَجْـزَعُ
(النقائض: ٢ / ٩٣١)

فالصراع الفكري العصبي بين الأحزاب الدينية والأحزاب السياسية، كان الشعر فيه يمتزج بالنزاعات القبلية، وهذا الشعر يجسد المشاعر من خلال ارتطامها بالقضايا الأساسية

في الدولة، ويتمثل أيضاً في ابتعاد هذا الوالي أو العامل عن تلبية مصالح القبيلة، وموقفه منها، أو من غيرها من القبائل وهذه الظواهر في العلاقات الإنسانية – في الأصل– لم تكن لتوجد بهذه الصورة، لولا ما أرسته دولة الخلافة من صراعات سياسية، كان لا بدّ أن تتوافق وتتناقض مع طبيعة التقاليد القبلية، فيحدث من هذا التوافق أو التناقض، ما يدفع بعض القبائل إلى مواكبة هذه الصراعات بالتأكيد ويدفع بعضها بالتهديد (أحمد: ٩٥). وسجن أسيد بن عبدالله القسري عاصما الهلالي – وكان صديقا له –، فكتب له عاصم:

حَبَاكَ خَلِيلُكَ القَسريّ قيداً — لَبِئسَ عَلَى الصّداقَةِ مَا حَبَاكَا
فَانقذ، يَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمّي — أَسِيراً طَالَ مَا انتظرَ الفِكَاكَا
بمرو التَاهجَان إذا تَروّت — حَديدة سَاقِهُ بِدَم دَعَاكَا
أَأَخلَعُكُم وَأضرِب خَالِعيكُم — بِنَصلِ السّيف كَيفَ يَكونُ ذَاكَا

(الطائي :١٠٣)

ولم تشفع القرابة، ولا حتى الأخوة في التخلص من العصبية، كما هو الأمر بين الأخ وأخيه، فعبدالله بن الزبير – الخليفة – بالغ في تعذيب أخيه عمرو في السجن؛ لأن هواه كان مع بني أمية، فكان يضربه والقيح ينضح من ظهره وأكتافه على الأرض؛ لشدة ما يمر به، ويضربه، وهو على تلك الحال، ثم يأمر الأخ – الخليفة – بأن يرسل عليه الجعلان، فكانت تدب عليه، فتثقب لحمه، وهومقيد مغلول، يستغيث فلا يغاث، حتى مات على تلك الحال، وبعد موته، قال: لا تغسلوه ولا تكفنوه، وادفنوه في مقابر المشركين، فقال الشاعر عبدالله بن الزُّبير الأسدي:

جَعَلتُم لِضَربِ الظَّهرِ مِنهُ عَصّيكُم — تُرَاوِحهُ وَالأَصبَحِيَةُ لِلبَطنِ
قَتَلتُم أَخَاكُم بِالسّيَاطِ سَفَاهَةً — فَيَا لَكَ لِلرّأيِ المُضَلّلِ وَالأَفنِ

(الديوان: ١٣٥)

وفي زمن بني أمية فواجع لا تقل ضراوة عما كان يجري قبل الإسلام، إن لم تكن أوجع(البزرة: ١٦٢).

فقد سمّى الناس سليمان بن عبدالملك، مفتاح الخير؛ لأنه أذهب عنهم سنّة الحجاج وأخلى السجون (ابن خلكان: ٢/ ٤٢٠). وهناك إضافة إلى ما كان يفعله الحجاج كثير من صور العنف القبلي، التي تمثل سلوكيات مبالغاً فيها من قبل معن بن زائدة، والي اليمن، وكيف كان يقتل اليمنية ويسجنهم تعصباً لقومه من ربيعة، وغيرهم من نزار، وكذلك ما كان

من عقبة بن سالم، إذ كان يقتل عبدالقيس وغيرهم من ربيعة قصداً إلى النيل من معن والكيد له، وتعقباً لقومه من اليمنيين (المسعودي: ٢/ ١٩٧). وكانوا أحياناً يتناسون هذه العصبية وكأنها غير موجودة (رواقة: ١٨٠).

كان الوليد بن يزيد مضطغنا على محمد بن هشام، لأشياء كانت تبلغه عنه في حياة هشام بن عبدالملك، فلما ولي الخلافة، قبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بن هشام، وأُشْخِصا إليه إلى الشام، ثم دعا بالسياط، فقال له محمد: أسألك بالقرابة، فقال: وأي قرابة بيني وبينك... فقال يا أمير المؤمنين، قد نهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن يضرب قرشي بالسياط إلا في حَدّ، قال في حدٍّ أضربك وقَوَد، أنت أول من سنّ ذلك على العرجي، وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان... فضربهما ضربا مبرحا، وأثقلا بالحديد، ووجه بهما إلى يوسف بن عمر بالكوفة، وكتب إليه، احبسهما مع ابن النصرانية – خالد القسري–، فعذبهم عذابا شديدا، حتى لم يبق فيهم موضع للضرب، ومات الثلاثة في يوم واحد، فقال الوليد بن يزيد:

قَد راحَ نَحوَ العِراقِ مَشْخَلَبَه ... قُصارُهُ السجنُ بَعدَهُ الخَشَبَهْ

يَركَبُهَا صَاغِراً بِلا قَتَبٍ ... وَلا خِطَام وَحولَهُ جَلبَهْ

فَقُل لِدَعجَاءَ إنْ مَررتَ بِهَا ... لَن يَعجِزَ اللهَ هَارِبٌ طَلَبَهْ

قَد جَعَلَ اللهُ بَعدَ غَلبَتِكُم ... لَنَا عَليكُم يَا دُلْدُلُ الغَلَبَهْ

(الديوان: ١٧)

إن التطلع إلى الخلافة ومحاولة الوصول إليها، كان من أهم أسباب بروز النزعة العصبية في العصر الأموي، فكانت "فترات فوضى الحكم والنزاع على الخلافة تؤرث العصبية القبلية بين القبائل، ثم لا يزعها إلا وال أو خليفة شديد البطش مخوف الإهاب" (البزرة: ١٦٢)، ونرى نبرة العصبية وحدتها واضحة عند الأمويين على غيرهم، إيذاناً برفع صوت الإسلام عنها وكسر القيود التي فرضت عليها أيام النبي الكريم وصحابته أملاً في الوصول إلى الخلافة، التي كانت نفوسهم تشرئب إليها منذ القدم، فعندما انتقل الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى الرفيق الأعلى، كان أبو سفيان غائبا، فلما قدم، قال: كيف رضيتم يا بني عبد مناف أن يلي أمركم غيركم. (المقريزي: ٧٣). ونلاحظ في بعض النماذج الشعرية نبرة التحدي والقوة في الهجاء اللاذع الموجه، الذي يهدف إلى تغيير الواقع بدافع عصبي، ويزيد بن مفرغ الحميري، أكثر النماذج تمثيلاً لهذا الاتجاه الذي يراد به التغيير، فقد كان حليفاً للقرشيين صديقاً للفرع العثماني، استنكر أن يتولى زياد بن أبيه ولاية المسلمين، وهو مجهول

النسب، بينما يحال بين الأكفياء من قريش وبين المناصب السياسية، والتي كان من المتوقع أن تكون الخلافة لهم – لقريش – وعلى رأسهم عليّ، وعليّ نفسه كان يتوقع ذلك، لذلك لم يبادر للمطالبة بها، فعندما خلا العباس – عم الرسول الكريم – بعليّ وأراد مبايعته، لحظة انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى– أجابه عليّ متعجباً " يرحمك الله، ومن يطلب هذا الأمر غيرنا ياعم " (المقريزي: ٧٥)، وهذا ما جعل يزيد بن مفرغ الحميري، فيما بعد، يتخذ من نسب زياد مدخلا لهجاء مستمر مرير، نال فيه منهم، ومن هيبتهم، يقول:

فَلَو أنّ لَحمِي إذ وَهَى لَعبتَ بِهِ ... كِرامُ مُلوكٍ أو أسودٌ وأذؤبُ
لَهَوّنَ من وَجْدي وسلّى مصيبتي ... ولكنما أودى بلحمي أكلبُ
أَعَبّادُ مَا لِلّؤمِ عَنْك مُحولٌ ... وَلا لَكَ أُمّ فِي قُريشٍ وَلا أَبُ
وَقُل لِعُبيدِ اللهِ: مَالك وَالد ... بِحقّ وِلا يَدرِي امرؤ كَيفَ تُنْسَبُ

(الديوان: ٥٧–٥٩)

وكان أشراف قريش يباركون له هذه الخطوة ويساندونه في الخفاء، حتى إذا اشتدت المواجهة بينه وبين عباد بن زياد، انفضوا من حوله، يقول:

أصبَحتُ لا مِن بَنِي قَيسٍ فَتنصرنِي ... قَيسُ العِراقِ وَلَم تَغضبْ لَنَا مُضَرُ
وَلَم تكلّم قُريْش فِي حَلِيفِهِم ... إذ غَابَ أنصَارُهُ بِالشّامِ وَاحتُضرُوا

(الديوان:١٢١–١٢٢)

فعاش يزيد مأساة نفخت فيها العصبية القبلية ريحا دويا، فيها دخل السجن وبقوتها خرج، ومأساته مثل حي للصراع بين العصبية والسلطة، وفيها الدليل على أن الحكام الأشداء كانوا أنفذ أثرا وأعلى يدا من عصبية القبائل، هذه العصبية التي لم تستطع أن تنتصر للعرجي طوال تسع سنوات في السجن (البزرة: ١٨٦، ١٨٢).

فقد ازدادت مساحة التعصب القبلي اتساعا، وتجاوزت التعصب العرقي، أو عصبية الدم إلى أبواب أخرى، تراها في باب السياسة التي أسهمت في تفاقمها في المدن والبوادي على السواء، وأسهم في نشرها على هذا المستوى من الاتساع، موقف الولاة، فيما نهضوا به من صور التقريب أو الإبعاد أو العزل والحرمان (خليف: ٥١).

٣- الصعلكة:

من الأسباب التي كانت تؤدي إلى السجن، الصعلكة، وهناك أسباب عدة لظهور الصعلكة، منها السبب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وهذه الظاهرة توارت في

صدر الإسلام، ولكنها وجدت أحداث العصر الأموي متنفساً لها، فعادت من جديد، ولا يعنينا البحث في تفاصيلها وأساليبها فقد كفاني وغيري كثير من البحوث التي تناول فيها أصحابها هذا الموضوع من جوانبه كافة، يأتي في مقدمتهم كتاب الدكتور حسين عطوان " الشعراء الصعاليك في االعصر الأموي " ، وبما أن السلطة الأموية كانت مسؤولة عن الناس وحياتهم، فكان عليها أن تتعقب كل لص ومفسد وقاتل ؛ لتعاقبه، وقد اعتبرت السلطة الأموية الصعاليك خارجين على الدولة ونظامها وعابثين بأمنها، فراحت تطاردهم، وربما فرضت المكافآت لمن يساعدها في القبض عليهم، لتذيقه ألوان العذاب، ومن الصعاليك الذين وقعوا في قبضة السلطة الأموية: مالك بن الريب وجحدر بن معاوية وعبيد الله بن الحر والمرار الفقعسي والقتال الكلابي وغيرهم، وقد عاقبتهم الدولة حبساً أو قتلاً أو جلداً، وكان الصعاليك الشعراء يهجون قبائلهم وقومهم ويتوعدونهم ؛ لأن هذه القبائل أحياناً، كانت تقصر في المطالبة بالإفراج عنهم، وظهور الصعاليك كان مرتبطا بالحقب التي كثر فيها الظلم، واشتد البغي، وبخاصة أيام عبدالملك (عطوان: ٤٦).

فمن الشعراء الصعاليك المرار الفقعسي، وكان هو وأخوه - بدر - لصين كبيرين، حبسهما عثمان بن حيان المريّ، والي المدينة، ولكن المرار فرّ من السجن، وبقي أخوه، فطارده عثمان وحبسه مرة ثانية، فبقي مع أخيه مدة في السجن، وتوفي بدر مسجوناً مقيداً، وشاهد المرار هذا المنظر، الذي لم يستطع أن يقدم أدنى مساعدة له، فقال المرار وهو في السجن:

أَنَارٌ بَدَت مِن كُوّةِ السجنِ ضوؤُهَا عَشِيَّةَ حَلّ الحَيّ بالجَرعِ العُفرِ
فَإن تفعلا أحدكما ولقد أرى بأنكما لا ينبغي لكما شُكرِي
فَيَا وَيلتَا سجنِ اليَمَامَةِ اطلِق أسيرَكمَا ينظرُ إلى البَرقِ مَا يَفرِي
وَلَو فَارَقتْ رِجلِي القُيودُ وَجدْتَنِي رَفِيقاً بِنَص العِيسِ فِي البلدِ القفرِ

(القيسي: ٢ /٤٥٣-٤٥٤)

فكان السجان يلقي به ألوان العذاب، حتى لكأن نار جهنم التي توعد الله بها المشركين، تستمد قوتها ولهبها وهولها من هذه النار التي يعذب بها، يقول عبيدالله بن الحر:

أَرَى الدّهر لِي يَومَين مُطّرِداً شَرِيداً وَيَوماً فِي المُلوكِ مُتوّجاً

(القيسي: ١ /٩٨)

فالثورات التي أشعلتها الأحزاب المعارضة للأمويين، رافقها ثورات أخرى قام بها الموالي (اليعقوبي: ٢/ ٢١٠)، وكذلك بعض أشراف العرب، مثل ثورة عمرو بن سعيد بن العاص على عبد الملك، وثورة ابن الأشعث على عبدالملك أيضا، وثورة يزيد بن المهلب بالبصرة،

الذي حبس عاملها عدي بن أرطاة. إن مثل هذه الثورات ساعدت في تخلخل الاستقرار الأموي، وبالتالي مهد لتوفر جو مناسب لظهور فئة الصعاليك، وخاصة السياسيين منهم (عطوان: ص ٧٦).

وقال عبيد الله بن الحر يفتخر في سجنه:

لَنِعمَ ابنَ أختِ القومِ يَسجنُ مُصعَبٌ ... لِـطَـارِقِ لَـيـلٍ خـائـفٍ وَلـنَـازِلِ

(القيسي: ١/ ١١١)

وقال السمهري العكلي في سجنه:

وَلَـو أَنّ لَيلَى أَبصَرَتنِي غُـــدوَةً ... وَصَحبِي وَالصّف الذينَ أُمَارِسُ

إذاً لَبَكَـتْ لَيلَى عَلَـيّ وأَعْوَلَـــت ... وَمَـا نَـالَـت الـثّوبَ الـذي أَنَـا لابِسُ

(القيسي: ١/ ١٤٤)

فعلى الرغم من التصدع والتشتت النفسي الذي عانى منه هؤلاء الشعراء، وتحطمت من خلاله معنوياتهم ومع ما أضناهم التشرد والاضطهاد وذل الغربة فقد بقيت قصائدهم قوية متماسكة، كما تميزت القصيدة لديهم بعاطفة أو انفعال أو إحساس عام كان بمثابة السلك الخفي الذي يربط بين أجزائها. وكان الصعاليك يركزون على القلق النفسي والاضطراب الداخلي، وكل ما يذكرهم بالسجون وأبوابها وحرسها، والقيود وآثارها في أيديهم وأرجلهم، وكيف امتلأت نفوسهم توجسا وقلوبهم خوفا، قال السمهري العكلي:

كَيفَ أُحَيّيهَا وَقَد نَذَرُوا دِمي ... وَأَقسَمَ أَقـوَامٌ مَخـوفٌ قَسَامَهَا

(القيسي: ١/ ١٤٦)

فقد ضاقت الحياة بجحدر بن معاوية بحيث لم يجد أحدا يلجأ إليه، ويخلصه مما هو فيه ولما طال حبسه واعتلت نفسه لم يلجأ إلا لله، فأوكل أمره له، يقول:

يَا نَفسُ لا تَجزَعِي إِنّي إِلَى أَمَدٍ ... وَكُـلّ نَـفسٍ إِلَـى يَـومٍ وَمِقدَار

(القيسي: ١/ ١٧٥)

إن الظروف الصعبة التي عاشها الصعاليك اضطرت بعضهم إلى نظم بعض الأبيات في الاستغاثة، بعد أن كان ثائرا متمردا، يقول جحدر بن معاوية، معتذرا عما فعله في صعلكته، ومادحا إبراهيم بن عربي، والي اليمامة:

يَا أَقرَبَ النّاسِ مِن حَمدٍ وَمَكرُمَةٍ ... وَأَبـعَدَ الـنّـاسِ مِن ذَمٍّ وَمِـن عَـارِ

وَأعظَمَ النّاسِ عَفواً عِندَ مَقــدِرَةٍ ... وَلَـيـثَ غَـابٍ عَلَـى أَعـدَائِـهِ ضَـارِ

أَنعِم عَليّ بِنُعمَى مِنكَ سَابِغَةٍ مِن سَيبِ أَروَعَ نَفّاعٍ وَضَرّارِ

(القيسي: ١/١٧٦-١٧٧)

فالقصيدة أو المقطوعة عندهم تحقق غرضا مشتركا هو التركيز على شخصية الشاعر والتعبير عن مدى إحساسه بالعجز والألم والإحباط والثورة والتحدي والتهديد، وهذا الشعور يتفاوت من حين لآخر ومن شخصية إلى أخرى، لكنه في كل الأحوال يتركز حول شخصية الشاعر ووصف أحاسيسه ومشاعره. وقال الخطيم المحرزي، يستعطف قومه، وهو في سجن نجران:

أَبَت لِي سَعدُ أَنْ أُضَامَ وَمَالِكُ وَصِيّ الرّبَاب وَالقَبَائِل مِن عَمرِو

(القيسي: ١/٢٥٦)

وقال الخطيم المحرزي، يستجير سليمان بن عبد الملك:

أَعِذنِي عَيّاذاً يَا سُلَيْمَان إِنَّنِي أَتِيك لَمّا لَم أَجِد عَنكَ مُقعَداً

لِتُؤمِننِي خَوفَ الذي أَخَاف وَتُبلِعنِي رِيقِي وَتنظرنِي غَدَا

قَراراً إِليكَ مِن وَرَائِي وَرَهبَةً وَكنتُ أحقَّ النّاسِ أنْ أَتَعَمّدَا

(القيسي: ١/٢٦٦)

ولعل هذا ما ذهب إليه عبد الحليم حنفي، وهو يتحدث عن شعر كثير من أفراد هذه الظاهرة حيث يرى أن شعر هؤلاء أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية التي يدون الشخص فيها أفكاره ومشاعره وما يحسه حوله في موقف من المواقف فيسجلون بشعرهم هذا الإحساس الذي أظهر من خلاله مزيدا من الوحدة والترابط وعدم التنافر بين معانيه وكل ذلك يرجع إلى لجوئه إلى أسلوب المذكرات الشخصية، وهذا ما دفع بشعراء هذه الظاهرة إلى اتخاذ المباشرة أسلوباً في التعبير عن كل ما يعتمل في نفوسهم من آمال وآلام، ولذلك كان من المتطلبات الرئيسة لهذا البحث تقدير قيمة الكلمة وإدراكها والوعي بها، إذ الكلمة هي أهم وسائل الشاعر في إبداعه وهي المثير المادي للمعاني التي تجيش بها نفسه، فالتجربة الأدبية منبعها النفس، وباعثها الانفعال الصادق، وهي ترجمة فنية لما يمور في أعماق النفس من أشواق وعواطف نحو إعادة تشكيل الواقع المرفوض ومحاولة جادة لخلق آفاق جديدة لمستقبل جديد.

فكانت حياة السجون قاسية عليهم؛ لأنهم خلعوا من مجتمعاتهم، لذلك جاءت أشعارهم غنية بالمعاني والأحاسيس والمشاعر التي أحسوها، وهم في غياهب السجون، كما كانت غنية بالصور المتنوعة التي استمدوها من واقع حياتهم؛ لأنها رسمت من واقعهم النفسي والمجتمعي.

٤- الغزل:

يعد الغزل أحد فنون الشعر القديمة التي طرقها الشعراء، وكان القدماء يطلقون عليه اسم التشبيب أو النسيب أو الغزل، وهي كلها ألفاظ مترادفة، فالغزل من الموضوعات الأساسية في الشعر العربي، ولكنه قل بشكل واضح في صدر الإسلام؛ بسبب انشغال المسلمين بالدفاع عن كيانهم والجهاد في سبيل الله في مواقع عدة، وجهادهم هذا بالفكر والكلمة لم يكن يترك لهم مجالا للاطمئنان إلى النظرة للمرأة، ولم يهتد الشعراء إلى إدراك جديد في تلك الفترة من صدر الإسلام، فأولئك أصحاب اتجاه متميز في الشعر الأموي، وإلى جوارهم عاش شعراء آخرون أو جاؤوا بعدهم، لم يشتهروا بالحب، ولكنهم استطاعوا التعبير عن معانيه تأثراً بهؤلاء، أو محاكاة لما شاع في البيئة الإسلامية من معان وعواطف. والعصر الأموي، أوجد الجو المناسب لظهور نوع جديد آخر، وهو الغزل السياسي، بجانب أنواع الغزل المعروفة، الحسي والعذري، وبقي الغزل في هذا العصر، بل واشتهر به الشعراء، ولأن الدولة الإسلامية راحت تعاقب من يجاهر به، فقد نفي الأحوص؛ لأنه تغزل بنساء أشراف الأنصار وقريش (سعد: ١٦٩)، وقال العرجي في جبرة، زوجة محمد بن هاشم متغزلا:

عُوجِي عَلَيّ وَسَلّمِي جَبْرُ فِيمَ الصّدودُ وَأَنتُم سَفْرُ
فَكَفَى بِهِ هَجراً لَنَا وَلَكُم إنّي وَذَلِكَ فَاعلَمِي الهَجرُ
لا نَلتَقِي إلا بِثَلاثِ مِنَىً حَتّى يُشَتِّتَ بَينَنَا النّفْرُ
بِالشّهرِ بَعدَ الحولِ نَتبَعُهُ مَا الدّهرُ إلا الحَولُ وَالشّهرُ
(الديوان:٤٢- ٤٣)

وقال أيضا في أم محمد بن هشام متغزلاً:

عُوجِي عَلَينَا رَبّة الهَودَجِ إنّكِ إن لا تَفعَلِي تُحرَجِي
أَيسَرُ مَا نَالَ مُحِبٌ لَدَى بَينِ حَبِيبٍ قَولُهُ عَرّجِ
(الديوان: ١٤)

هذا النوع من الشعر جعله سلاحا يطعن به الأمويين في معنوياتهم ونفوسهم من الداخل، فراح يصفها وصفا حسيا، والهدف من ذلك، هو فضح محمد بن هشام، لا المحبة بينهما، وكان هذا سبب حبس محمد له، وضربه حتى الموت.

هذه أهم موجبات السجن في العصر الأموي، والتي تمثل الأسباب الرئيسة، ولكننا نجد أحيانا تداخلا بين هذه الأسباب وأسباب أخرى، إذ قد يبدو السبب الظاهري شخصيا، ولكنه

في الحقيقة سياسي، أو قد يحوّل السبب السياسي إلى شخصي أو العكس، ولكن تبقى القوة من جانب والسياسة من جانب آخر، هي المحرك الأساس فيما وراء هذه الأسباب.

موضوعات شعر السجون:

كان الشعر في السجن يمثل سلوة للشاعر أو السجين، وتعزية للنفس عما حل بها، ومعظم موضوعات هذا الشعر تدور حول تجربة السجين، سواء أكان القائل داخل السجن، أم كان متصلا بمن له علاقة به، هذه التجربة المأساوية التي تركت آثارا سلبية على حياة من ابتلي به، ومن موضوعات شعر السجون:

١- العتاب والاستعطاف:

يعد العتاب والاستعطاف من موضوعات الشعر العربي بشكل عام وشعر السجون بشكل خاص، وقد أخذ مساحات واسعة من أشعارهم، تحت مسميات عدة، مثل: العتاب والاستعطاف والرجاء واللوم والطلب، وما يدور في معناهما، ومعظم هذه الأشعار كانت موجهة لأصحاب النفوذ، أملاً في تخليصهم من محنتهم، وغالبا ما يكون العتاب رقيقا، يخالطه مسحة من التذلل والخضوع والاعتراف بالذنب، فيرسل في عتاب الأهل أو الأصدقاء أو القبيلة، عتاباً رقيقاً، ملمحاً أنه من أجلهم دخل السجن، دفاعاً عنهم، وهدماً لخصمهم، وقد يلجأ الشاعر إلى ماضيه في قومه، وكيف ساند أهله وقت أزماتهم، فحق عليهم أن يقفوا بجانبه، يقول ابن مفرغ الحميري:

لَعَمري لَو كَانَ الأسيرُ ابنَ معمرٍ ... وَصَاحِبُهُ أو شكلهُ ابن أسيدِ

وَلَو أَنّهُم نَالُوا أُمَيّةَ أَرقَلَت ... بِرَاكِبِهَا الوَجنَاء نَحوَ يَزيدِ

فَأَبلَغَت عُذراً فِي لُؤي بنِ غَالبٍ ... وَأتلفَت فِيهِم طَارِفِي وَتَليدِي

فَإن لَم يُغيرهَا الإمَامُ بِحقّهَا ... عَدَلتُ إلى شُمٍّ شَوَامِخَ صِيدِ

فَنَادَيتُ فِيهِم دَعوَةً يَمَنِيّةً ... كَمَا كَانَ آبَائِي دَعُوا وَجُدُودِي

وَدَافَعتُ حَتّى أبلغَ الجُهدَ عَنهُم ... دِفَاعَ امرِىءٍ فِي الخَيرِ غَيرَ زَهِيدِ

إنْ لَم تَكونُوا عِندَ ظَنّي بِنَصرِكُم ... فَلَيسَ لَهَا غَيرُ الأغَرِّ سَعِيدِ

فَكَم مِن مَقَامٍ فِي قُريشٍ كَفَيتَهُ ... وَيوم يُشِيبُ الكَاعِبَاتِ شَدِيدِ

وَخَصمٍ تَحَامَاهُ لُؤيُ بنُ غَالِبٍ ... شَبّت لَهُ نَارِي فَهَابَ وُقُودِي

وَخـيـرٍ كَـثـيـرٍ قَـد أَفَـــأتُ عَـليكُـم   وَأَنـتُـم رُقـــودٌ أَو شِـبـيـهُ رُقُـــودِ

(الديوان:: ١١٣-١١٦)

لقد ارتبطت هذه المقطوعة برباط نفسي داخلي، شدّ الأبيات بعضها ببعض، وكأن الشاعر يريد أن يشد من عزيمة أهله وقبيلته، ويستحثهم ويستنجدهم ؛ كي يقفوا بجانبه، من خلال الكلمات التي توحي بالأمل والنظر نحو المستقبل، وقام حرفا العطف (الفاء والواو) في الربط بين أبيات المقطوعة بشكل مباشر، فتلاحمت خطوط الصورة الكاملة للمقطوعة من خلالهما، مما ساعد على توضيح صورة الصراع النفسي الشديد الذي كان يعانيه الشاعر، ومدى تمزقه بين الإفصاح عن حالته، وكشف مكنونات نفسه، وما يعتريها من لحظات ضعف ووهن إنساني، وبين حالة المكابرة، فاتخذت شكلاً بسيطاً من أشكال التساؤل والنفي والأسلوب التقريري الخطابي، وإن كانت من طرف واحد، إلا أننا نتبين الدور المتميز الذي قامت به في المحافظة على الوحدة النفسية، وتوزيع الانفعالات بين أبياتها، وتحقيق الانسجام، والنمو النفسي عن طريق العاطفة، ومن الاستعطاف ما قاله قال الأحوص، وهو في دهلك، مستعطفاً عمر بن عبدالعزيز :

أيَـا رَاكِبـَاً عَـرّضـتَ فَبَلّـغَـن   هُـدِيتَ أَمِيرَ المُؤمِـنِينَ رَسَائِلِي

وَقُل لأبِي حَفصٍ إذَا مَـا لَقِيتـهُ   لَـقَد كُنتَ نَفّاعَا قَلِيلَ الـغَوَائِلِ

وَكَيفَ تَرَى لِلعَيشِ طِيباً وَلَذّةً   وَخَالُكَ أَمسَى مُوثَقَاً فِي الحَبَائِلِ

(الأصفهاني: ٤ / ٤٢٦)

كانت تجربة السجن شديدةعلىالسجين، قاسية في خياله متجددة فيه، تحطمت آماله فيها، وكانت خيبة أمله في الخليفة وفي الأهل والأصحاب، أشد مضاضة على نفسه، أشعلت في نفسه جذوة ملتهبة من الضياع النفسي، فضاعفت من حجم المأساة، فانسابت الحسرة والرجاء في أشعاره، ومن العتاب المشهور قول العرجي، الذي راح مثلا في هذا الغرض، وكان قد علق الآمال على قومه في إطلاق سراحه، ولكنهم لم يحركوا ساكنا، على الرغم من أنه من شعراء قريش المعدودين، فقال :

أَضَـاعُـونِـي وَأَيّ فَـتَـىً أَضَـاعُـوا   لِـيـوم كَـرِيـهَـةٍ وَسِـــدَادِ ثَـغْـرِ

وَخَـلّـــونِـي لِمُـعـتَـرَكِ المَـنَـايَـا   وَقَـــد شَـرَعَـت أَسِـنّـتُـهَـا لـنَـحـرِي

كَـأنّـي لَـم أَكُـن فِـيـهِـم وَسِـيـطـاً   وَلا لِـي نِـسـبَـةٌ فِـي (آلِ عَـمـرِو)

أُجَـــرَّرُ فِـي الجَـوَامِـعِ كُـلّ يَـومٍ   أَلا لـلـهِ مَـظـلَـمَـتِـي وَصَـبـرِي

عَسَى المَلِكُ المُجِيبُ لِمَن دَعَاهُ يُنَجِّينِي فَيَعلَم كَيفَ شُكرِي
فَأُجزِي بِالكَرَامَةِ أَهْلَ وُدِي وَأُورِثَ بِالضَّغَائِنِ أَهْلَ وِتْرِى
(الديوان: ١٣٥-١٣٦)

وقال الفرزدق مستعطفا آل مروان ؛ لتخليصه من السجن وآثاره :

فَيَا خَيرَ أَهلَ الأرضِ إنّك لَو تَرَى بِسَاقَيّ آثارَ القُيودِ النَّواسِفِ
(الديوان:٢ / ٩)

وقال يستعطف خالد بن عبدالله القسري لإطلاقه من السجن :

فَهَل لابنِ عَبداللهِ مِن شَاكِرٍ لَكُم لِمَعرُوفٍ إنْ أَطلَقْتُم القَيدَ حَامِدِ
(الديوان،١ /١٣٣)

وتمضي الشهور وربما السنون بالسجين، ولا يلتفت إلى مأساته أحد من قومه، وكأن العصبية كانت لقضايا خاصة، فالنخوة والحمية، لم تجد آذانا صاغية، فالمصالح السياسية كانت بديلاً عن انتصار القبيلة لأحد أفرادها، حتى لو كان ذا مكانة مرموقة فيها، مثل العرجي. ويقع السجين تحت الاختبار، يعاني الضياع والاقتلاع، فيخفق في التكيف مع الوضع السياسي الجديد في هذا المكان، ويزداد شعوره بالشقاء والتعاسة والحزن، حتى يعجز عن تحقيق الانتماء المطلوب لهذا المجتمع أو القبيلة، قال السمهري العُكَلِي، وهو في السجن، يذم قومه، لتقصيرهم في إطلاقه :

أَلا لَيْتَنِي مِن غَيرِ عُكلٍ قَبِيلَتِي وَلَم أَدرِ مَا شُبّانُ عُكْلٍ وَشِيبُهَا
(القيسي:١ / ١٤١)

وقال جحدر لمن خرج من السجن، أتحمل عني شعرا، وأنشأ يقول :

فَيَا أَخَوَاي مِن جُشَم بنِ سَعدٍ أَقلا اللّومَ إنْ لَم تَنفَعَانِي
إذَا جَاوَزتُمَا سُعُفَاتِ حجْرٍ وَأَودِيَةِ اليَمَامَةِ فَانعِيَانِي
وَقُولا جَحدَرٌ أَمسَى رَهِينَاً يُحَاذِرُ وَقْعَ مَصقُولٍ يَمَانِي
يُحَاذِرُ صَولَةَ الحَجّاجِ ظُلْماً وَمَا الحَجّاجُ ظَلاماً لِجَانِي
أَلَم تَرَنِي غُذِيتُ أَخَا حُرُوبٍ إذا لَمْ أَجْنِ كُنتُ مَجِن جَانِ
فَإنْ أَهلَكْ فَرُبَّ فَتىً سَيَبكِي عَلَى مُهَذّبٍ رَخصِ البَنَانِ
(القيسي: ١٨٥-١٨٦)

٢- الوصف:

يأتي الوصف في مقدمة موضوعات شعر السجون ؛ لأنه يصف مأساة نفسية وجسمية حقيقية للسجين، وقد توصله هذه المأساة إلى الموت، ونرى الوصف يسير في أكثر من اتجاه، مثل وصف المكان وأهواله، وما فيه من مظاهر سلبية على حياة الشخص المسجون، ووصف نفسية السجين الداخلية في هذا المكان، ووصف القيد وما يتركه من أثر نفسي وجسمي، وتتجسد في الوصف كل معاني الذلّ والشقاء والغربة المؤلمة، لذا بقيت صورة السجن ورهبته بكل دقائقها وأبعادها واضحة في شعرهم، كما أخذت أدوات التعذيب بعداً خاصاً في شعرهم؛ لأنها خرجت عن الطبيعة الإنسانية في تعامل الإنسان مع الإنسان، فتركت في حياتهم بصمات واضحة من الذل والقهر، وبخاصة عندما كان يقترن بصورة الدم، وهي تسيل من الأرجل خلال التعذيب، مهما كانت أدواته وأنواعه، فجحدر بن معاوية يستنجد بالله ؛ لتخليص الناس والسجناء من سجن دوار ؛ لما فيه من ويلات وأهوال، يقول :

يَا رَبّ دَوّار انقذ أهلَهُ عَجِلا   وَانقِض مَرَائِرَهُ مِن بَعدِ إبرَامِ

رَبّ ارمِهِ بِخَرَابٍ وَارمِ بَانِيَهُ   بِصَولَةٍ مِن أَبِي شِبلَينِ ضِرغَامِ

(القيسي: ١٨١)

وقال جحدر مقطوعة يصف جماعة في هذا السجن، ومنها :

كَانَت مَنَازِلُنَا التي كُنّا بِهَا   شَتّى وَأَلّفَ بَينَنَا دُوّارُ

سِجنٌ يُلاقِي أَهلُهُ مِن خَوفِهِ   أَزَلا وَيُمنَعُ مِنهُم الزُوّارُ

(القيسي:١ /١٧٣)

وقال وقد حبسه الحجاج في سجن ديماس بواسط :

وَاطلَقَتنِي مِن الأصفَادِ مُخرَجَة   مِن هَولِ سِجنٍ شَدِيدِ البَأسِ ذِي رَصَدِ

(القيسي:١ / ١٧٢)

قد تجلت المعاناة النفسية المكانية الزمانية من خلال تصوير نفسه داخل الأصفاد، وكيف أن الأصفاد تلفه من كل جانب، وأرى أن استخدام الأصوات والجرس الموسيقي للكلمات، بأصواتها المفخمة، أعطى صورة عن حجم المصيبة وهولها، فجاءت الألفاظ : الأصفاد – هول – شديد – ذي رصد – تعكس الحالة النفسية الداخلية له، والتركيب الإضافي "هول السجن " هنا، عبر عن عمق المأساة ووصفها، إذ أن كل جذر لغوي يتوسطه الواو يدل على عظم الشيء وسعته حجمه، ومثله كلمة جوف، الذي يعبر عن المعنى ذاته في قول جحدر

في وصف السجن :

فِي جَوفِ ذِي شُرُفَاتٍ سُدَّ مَخرَجُهُ بِبَابِ سَاجٍ أَمِينِ القَفْلِ صَرّارِ

(القيسي: ١/ ١٢٧)

وقال عبيد الله بن الحر :

بِمَنزِلَةٍ مَا كَانَ يَرضَى بِمثلِهَا إِذَا قَامَ غَنّتْهُ كَبُولٌ تُجَاوِبُهْ

عَلَى السّاقِ فَوقَ الكَعبِ أَسوَدُ صَامِتٌ شَدِيدُ يُدَانِي خَطوَهُ وَيُقَارِبُهْ

(القيسي:١/ ٩٣)

وقال السمهري العكلي :

إِذَا حَرَسِيُّ قَعْقَعَ البَابَ أُرْعِدَت فَرَائِصُ أَقوَامٍ وَطَارَتْ قُلُوبُهَا

تَرَى البَابَ لا تَستَطِيعُ شَيئاً وَرَاءَهُ كَأَنّا قَنِيُّ أَسلَمَتهَا كُعُوبُهَا

(القيسي:١/ ١٤١)

لم يتوان الحجاج في سجن كل من يراه خارجا عن الدولة ونظامها وأهدافها، فقد سجن جحدر بن معاوية، فبعث إلى عامله على اليمامة إبراهيم بن عربي، فأودعه في سجن دوار، فقال شعرا يصف فيه السجن وبعض أدوات التعذيب :

يَغشَونَ مُقَطَّرَةً كَأَنّ عَمُودَهَا عُنْقٌ تُعرِق لَحمَهَا الجَزّارُ

(القيسي:١/ ١٧٣)

وأما الشخص الذي يخرج منه فقد وصفه بقوله :

كَأَنّ سَاكِنَهَا مِن قَعرِهَا أَبَداً لَدَى الخُرُوجِ كَمُنتَاشٍ مِن النّارِ

(القيسي:١/ ١٧٧)

ويقول جحدر، وقد حبس في سجن ديماس، وهو سجن كان للحجاج بواسط :

إِنّ اللّيَالِي نَحَت بِي فَهيَ مُحسِنَةٌ لا شَكّ فِيهِ مِن الدّيمَاسِ وَالأَسَدِ

كَأَنّ سَاكِنَهُ حَبا حَشَاشَته مَيْتٌ تردّد مِنهُ السّمُّ فِي الجَسَدِ

(القيسي:١/ ١٧٢)

٣- الاستغاثة:

توجد علاقة بين الاستعطاف والاستغاثة، ولكن الاستغاثة تكون بشكل أقوى وأشد، ولعلها تخبر بضرورة التحرك بسرعة؛ لوقوع خطر ما، فقد استغاث ابن مفرغ بالمنذر بن

الجارود، وكانت ابنته بحرية عند عبيد الله بن زياد، فقال يستنهض المنذر على حمايته:

حَمَى جَارَهُ بِشرُ بنُ عَمرِو بنِ مَرْثِدٍ بِـألـفِ كَـمِـيٍّ فِـي الحَـدِيـدِ مُكفَّرِ

(الديوان: ١٣٨)

ولكنه ما لبث أن تخلى عنه خوفا من ابن زياد، فدس عبيد الله من أتاه به، وذكر ابن المفرغ عجز المنذر عن حمايته:

تَرَكتُ قُريشاً أنْ أُجَاوِرَ فِيهِم وَجَاورتُ عَبد القَيسِ أهلَ المشقّرِ

أُنَاسٌ أجَارُونَا فَكانَ جِوارُهُم أَعَاصِيرَ مِن فَسوِ العِراقِ المُبَذّرِ

فَأصبَحَ جَارِي نَائِماً مُتبسطاً وَلا يَمنـعُ الجيـرَانَ غَيرُ المُشمّرِ

(الديوان: ١٣٥–١٣٦)

قال السمهري مستغيثا بني أسد:

بَنِي أَسدٍ هَل فِيكُم مِن هَوادَةٍ فَتغفرَ إنْ كَانَت بِي النّعلُ زَلّتِ

(القيسي: ١/ ١٤٣)

إن أسلوب النداء فيه نوع من اللهفة؛ لسماع خبر ما، من خلال التساؤل، الذي يعبر عن الصورة الحزينة البائسة التي كان عليها الشاعر، فهو نداء يوحي بعمق الاستغاثة، بمعطيات التوسل، وكان الشاعر موفقا في استخدام هذا الأسلوب، وبخاصة مع الاستفهام التقريري.

ومن صور الاستغاثة، ما قاله جحدر بن معاوية في إبراهيم بن عربي والي اليمامة؛ لإنقاذ أهله، وهي صرخة تخفي وراءها النقمة الحادة، واضطراب الحقد الذي ملك على مشاعره، وانعكس على جوارحه، حتى انفجرت أحاسيسه بهذه الهيئة المريرة، فقال مستغيثا:

سُقياً لِسَجنِكَ مِن سِجنٍ وَسَاكِنِهِ بِـديمـة مِـن ذَهَــابِ المَــاءِ مِــدرَارِ

بِـكُـلِّ جَــوْنٍ رَوايــــاه مُطبقــةٌ وَاهِــي الـغَـزالِـي مِـن الجَـوزَاء جَـرّارِ

وَقَـد دَعــوتُ وَمَــا آلــو لأسمِعَــهُ أَبَـا الـوَلـيـدِ وَدُونِـــي سِـــجنُ دوّارِ

فِي جَوفِ ذِي شُرفَاتٍ سُدَّ مَخرَجُهُ بِـبَـابِ ســـاجٍ أَمــينِ الـقُفلِ صَــرَّارِ

أدعــوهُ دَعــوةَ مَظلُـومٍ لِيَنصــرَنِي ثُـمّ اســتَغَثْتُ بِـذِي نُعمَى وَأَخطَـارِ

أَشكُو إلَـى الخَيـرِ إبرَاهِيـم مَظلَمَتِي فِي غَيرِ جُـرمٍ وَإخـرَاجِـي مِن الـدّارِ

(القيسي١/ ١٧٦)

وعلى الرغم من النغمة الهادئة التي تطغى على الأبيات، في بدايتها، إلا أن هناك بعض

الكلمات فيها تستوقفنا ؛ لأنها تشف عن موجات من الغضب تلوح من تحتها، وليست الكلمات المستخدمة، إلا دليلاً قوياً على تلك الثورة العارمة، المضطربة في نفسه، وهي لا تعدو أن تكون متنفساً، ينفث من خلالها غضبه وحتفه ويأسه، ولكنه لا يجرؤ، فيبقى ظاهر الأبيات هادئاً ساكناً، ويريد بأن يعمد إلى التخفيف من أثرها معزياً نفسه، باعثاً لها على التصبر، يقول الفرزدق مستغيثاً خالدا القسري ؛ لاطلاق سراحه من السجن :

أَلا مَن لِمُعتَادٍ مِــن الحـزْنِ عَائـِدِي	**وَهُم أنى دونَ الشّراسِيفِ عَائِدِي**
وَكَم مِن أَخٍ لِي سَاهِرِ الليلِ لَـم يَنَـمْ	**وَمُستثقِلٍ عَنّي مِن النّوم رَاقـِدِ**
وَإِنّــي لأرجُــو خَــالِـداً أَنْ يَفُكّنِي	**وَيُطلِق عَنّي مُثقِلاتِ الحَدَائـِدِ**

(الديوان: ١/١٣٢)

أنواع التعذيب:

١- التعذيب الجسدي

لعل الذكريات الماضية في حياة السجين، كانت تمثل بارقة أمل، لواقعه ومستقبله، فنراه يعتمد عليها كثيرا، فيستمد منها قوة تحمل تعينه على ما هو فيه، فالسجن قلب له ظهر المجنّ، فلا مكان هنا للفروسية والشجاعة واللهو، وكأن هذه الأمور لا قيمة لها في هذا المكان، فالانكسار والذل هما المسيطران على نفسيته، فيظهر شعر السجن بشكل عام الألم والمعاناة الحقيقيتين اللتين انعكستا على جسم السجين، بسبب القيد أو الوثاق، فكان هذا يزيده هما على ما فيه، وأرى أن صور التعذيب الجسدي بألوانه وأنواعه كافة، ظهرت بشكل أوضح من التعذيب النفسي، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن صاحب الأمر يريد أن يرى بأم عينيه، ما سيحل بهذا السجين، وكيف سيؤول مصيره، ويريد أن يشفي ما في صدره من غل، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالثأر والانتقام، أو حقد دفين، أو عصبية ثائرة، ووقع الآن بين يديه، بعد مطاردة طويلة، فصاحب الأمر هنا، لايكتفي بعذاب نفسي، قد يطول، وإنما يريد أن يحقق ما في نفسه، وقصة العرجي، وغزله في زوجة محمد بن هشام وأمه وأخته خير مثال على ذلك، ولا شك أنه انتظر هذه اللحظة منذ زمن ؛ ليذيقه ألوان العذاب، يقول العرجي، وهو في سجن مكة :

فَكَم مِن كَـاعِـبٍ حَـورَاءَ رُوْدٍ	**أَلُـوفِ السِّترِ وَاضِحَـةِ التّرَاقِي**
بَكَت جَزَعاً وَقَد سُمِرتْ كُبولِي	**وَجَـامِـعَـةٌ يُـشَـدُّ بِـهَـا خِـنَـاقِـي**

(العرجي: ١٣٥-١٣٦)

ويقول طهمان بن عمرو الكلابي :

أَسِيراً يَعُضُّ القَيدُ سَاقَيهِ فِيهِمَا مِن الحُلقِ السّمرِ اللّطافِ وَثِيقُ

(الديوان:١٩)

وكان جحدر قد أغار على حجر وناحيتها، فبلغ ذلك الحجاج، فأمر به قتيلا أو أسيرا، فأتي به أسيرا، قال له الحجاج : إنا قاذفون بك في حائر، فيه أسد عاقر، فإن هو قتلك، كفانا مؤنتك، وإن أنت قتلته خلينا سبيلك، وإنا لسنا بتاركيك تقاتله، إلا وأنت مكبل بالحديد، فأمر به فغلت يمينه إلى عنقه، وأرسل به إلى السجن (السيوطي ٤٠٧-٤٠٩)، يقول جحدر بن معاوية :

الدّهرَ أَرسُفُ فِي كَبْلٍ أُعَالِجُهُ وَحلقِة قَارَبوا فِيهَا بِمسمَارِ

أَدُورُ فِيهِ نَهَارِي ثُمّ مُنقَلَبِي بِالليلِ أدهَمَ مَزرورُ بِأزرَارِ

(القيسي: ١/١٧٦).

كان السجن حياة مختلفة متنوعة، مثّل واقعا حسياً ملموساً، ذاق فيه السجين مرارته، ورأى ظلمه، وغالبا ما يؤدي إلى الموت، أما الزمن ممثلا في الحياة، فلم يكن إلا المدخل الطبيعي للنهاية التي كتبت عليه، وقد تركت هذه الحياة بصماتها الواضحة على حركته الشعرية، وطبعت كثيراً من جوانب هذه الحركة، بما كانوا يقفون عنده من خلال السلوك المفروض عليهم في هذه الحياة، فقد بانت المعاناة على جسم السجين، وعبثت به الأيام، فنحل جسمه، وبانت عروقه، يقول أعشى همدان :

استَنكَرَتْ سَاقِي الوِثَاقَ وَسَاعِدِي وَأَنَا امرؤ بَادِي الأشَاجِع أَعجَفُ

(الديوان:١٣٨)

فظهرت المعاناة الجسدية على جسمه، وتركت آثارا شكلت له معاناة إضافية، وطبيعة الصراع، داخلياً كان أم خارجياً، كان يمتلك سلوكه، ويخلق في هذه النفس انعطافات حادة وفجوات قاسية من الانفصام والتهالك، وقد ظلت صور هذه الحالات وانعكاساتها الخارجية، تنضح على شكل دفعات غير متوازنة، وارتدادات شعرية غير مستقيمة في شعرهم، يقول السمهري العكلي :

مُقرنَة الأقدَامِ فِي السجنِ تَشتَكِي ظَنَابِيب قَد أَمست مُبيناً عُلوبُهَا

(القيسي:١/١٤١)

جمع السجن أخلاطا مختلفة فكرا وسياسة وعصبية، وقد كبلوا بالقيود، وهذا له صور

مختلفة في شعرهم، فجاء التساؤل عند العرجي ينتقد الحقيقة والواقع، بما فيه من تناقضات، وهو ينبعث من أفواه المساجين- على لسانه -، مما يمنح القارىء صورة أخرى من الصور التي أخذت موضعها في حديثه، وهو تساؤل يخرج عن حدود التقدير الضمني للإطار العام؛ لأنه يفسر الكلام الذي كانت حقائقه تناقش في حوار المساجين، تتضح أسبابه من خلال الصور التي رسمها لعذابات السجن، وقد حبس الحجاج إبراهيم بن يزيد التيمي الزاهد، ومنع عنه الطعام ثم أرسل عليه الكلاب، تنهشه حتى مات (ابن الأثير: ١/ ١٩٠). كان خالد بن عبد الله القسري في سجن يوسف بن عمر الثقفي في العراق، مدحه أبو الشعب العبسي بهذه الأبيات:

ألا إنّ خَيـرَ النّـاسِ حَيّـاً وَمَيتَـاً ... أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِندَهُم فِي السّلاسِلِ

لَعَمـرِي لَئِن عَمرتُم السجنَ خَـالِـدا ... وَأَوطَـأتُمـوُهُ وَطـأةَ المُـتَـثَـاقِلِ

فَإن تَسجِنُوا القَسرِيّ لا تَسجِنُوااسمَهُ ... وَلا تَسجِنُوا مَعروفَهُ فِي القَبَائِلِ

(ابن خلكان: ٢ / ٢٣٠)

ويقول ابن مفرغ:

مِن الطّفِّ مَجلُوباً إلَى أَرضِ كَابُلٍ ... فَمَلّوا وَمَا مَلّ الأسيرُ المُعَذّبُ

(الديوان: ٥٧)

وعلى الرغم من العذاب الجسدي للسجين، فإننا نلاحظ الأمل والصبر في شعرهم، وكذلك قوة الإرادة والجرأة والشجاعة في القول والفعل - أحيانا -، وربما هذا فاق من هم خارج السجن، وحقق قضايا عجز عنها الآخرون، من خلال تصويره للحالة التي وضع فيها، وعلى متابعتها، وهي في أشد حالاتها ذعراً، قال عبدالله بن الزَّبير الأسدي متحدياً:

أَظَنَّ أَبُو الحَدرَاء سَجنِي تِجَارَةً ... تُرجَى وَمَا كُلّ التّجَارَةِ تَربَحُ

(الديوان: ٦٨)

لقد تحدى السجين -أحيانا- السجان والواقع، فالسجين والسجان، كلاهما وجه للحكم ونقض الحكم، كما المرض والصحة، فإن لم تستأنف الصحة حكم المرض وتنقضه، يصبح المرض مزمناً (أبو شماله: ١٨٦)، لذلك كان لا بد من التحدي والرفض للواقع الأليم، ولا خيار سواه، فالأمل بالله ثم بالأصدقاء والأهل والقبيلة ويأتي الاعتماد على النفس والتجلد والصبر أخيرا، قال عبيدالله ابن الحر:

أَقُولُ لَـهُ صِيداً عَطِيٌّ فَإِنَّمَا ... هُوَ السّجنُ حَتى يَجعَلَ اللهُ مَخرَجاً

(القيسي: ١ /٩٧)

كانوا من أعماق السجون يحنون إلى الحرب ولا يخشون من سلطان السجان، فقد سجن المغيرةُ معاذَ بن جون بن حصين، وهم بنفي الخوارج عن الكوفة ، وكان معاذ من شعراء الخوارج، فأرسل إليهم من سجنه متحديا صابرا، متمنيا الخروج للقتال والفتك بالأمويين :

ألا أيها الشارون قد حان لامرىء — شرى نفسه في الله أن يترحلا

فشدوا على القوم العداة فما أرى — إقامتكم للذبح رأيا مضللا

فيا ليتني فيكم على ظهر سابح — شديد القصيرى دراعاً غير أعزلا

مشيحا بنصل السيف في حَمَس الوغى — يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا

ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم — أثرت إذاً بين الفريقين قسطلا

فيا رب مجتمع قد فللت وغارة — شهدت وقرن قد تركت مجندلا

(عباس: ٤٥)

وقال عبدالله بن الزَّبير الأسدي في عمرو بن الزُّبير، يصفه بالتحدي والصبر وقوة الإرادة واحتمال التعذيب :

مَا قَالَ عَمرو إذ يَجُودُ بِنَفسِهِ — لِضَارِبِهِ-حَتّى قَضَى نَحبَهُ-دَعْنِي

(الديوان:١٣٤)

وفي ذلك يقول ابن مفرغ :

سَيَنصُرُنِي مَن لَيسَ تَنفَعُ عِندَهُ — رقَاك، وَقرم مِن أُمَيّةَ مُصعَبُ

(الديوان: ٥٩)

وخاف القتال الكلابي أن يدركه الموت، وهو في السجن، بعيدا عن أهله وذويه، فقرر الهرب، فقال :

وَلَمّا رَأَيتُ البَابَ قَد حِيلَ دُونَهُ — وَخِفتُ لِحاقاً مِن كِتَابٍ مُؤَجّلِ

رَدَدْتُ عَلَى المَكرُوهِ نَفساً شَرِيسةً — إِذَا وُطِّنَت لَم تَستَقِد لِلتّذَلّلِ

(الديوان:٧٥)

وما يزيد الأمر سوءا على السجين، تلك الموازنة الواضحة بين وضعين وزمانين، ماضٍ زاهٍ مشرق، وحاضر سيىء رديء، لا يبشر بخير، لا ينبىء في الوصول إلى وضعه السابق، وغالباً ما تكون هذه الموازنة بين الداخل والخارج، داخل السجن وخارجه، وكيف تبدلت الأحوال، إذ نزل من الأعالي، واستقر في غياهب السجون، وهذه الموازنة، فيها نوع من الانكسار الداخلي غير المعلن، المعاناة الخفية، حتى لو لم يفصح عنها السجين، قال أعشى همدان :

أَصبَحتُ رَهناً لِلعِدَاةِ مُكَبّلاً أُمسِي وَأُصبِحُ فِي الأَدَاهِمِ أَرسِفُ

(الديوان ١٣٨)

وقال جحدر:

كَانَت مَنَازِلُنَا التِي كُنّا بِهَا شَتّى فَأَلّفَ بَينَنَا دُوارُ

فَصِرتُ فِي السجنِ وَالحُرّاسُ بَعدَ التّلَصّصِ فَي بَرٍّ وَأَمصَارِ

(القيسي:١ / ١٧٥)

وتخلي الأصدقاء والأهل عنه، ضاعف من همومه وعذابه، ففاضت نفسه بشعور قوي، بالسخط على هذا المجتمع، وانكسرت نفسه انكساراً شديداً، حين تضاف عقوبة نفسية أو عقوبات أخرى إلى معاناته الجسدية، كما حدث مع ابن مفرغ، إذ باع عبيد الله بن زياد أقرب الناس إلى نفسه، غلامه بردا وجاريته الأراكه، فقال في ذلك:

يَا بَرد مَا مَسّنَا دَهرٌ أَضَرّ بِنَا مِن قَبلِ هَذَا وَلا بِعنَا لَهُ وَلَدَا

أَمّا الأَرَاكُ فَكَانَت مِن مَحَارِمِنَا عَيشاً لَذِيذاً وَكَانَت جَنّةً رَغَدَا

(الديوان:٥٥)

التعذيب النفسي:

يترك التعذيب النفسي أثرا أقوى وأشد على السجين من التعذيب الجسدي، كالإجبار أو الإكراه على فعل أمر ما، أو التعرض للنساء أو الأهل أمام سمعه أو بصره، فمن ألوان التعذيب النفسي الذي كان يمارس على الأشخاص داخل سجونهم قول ابن مفرغ:

وَأُطعِمتُ مَا إِن لا يَحِلّ لآكِلٍ وَصَلّيتُ شَرقَاً، بَيتَ مَكَةَ مَغرِبُ

(الديوان: ٥٣)

وعبارة "صليت شرقا" تمس عقيدته، فقد أجبر أن يتوجه في صلاته إلى قبلة النصارى(البغدادي: ٤/ ٥١٦)، فقد بولغ في إيذائه نفسيا، بقضية تمس العقيدة والدين، وبالتالي سيكون أثرها أبعد، ومن أنواع التعذيب النفسي، أنهم كانوا يلجؤون إلى حبس الأهل، إذا لم يتمكنوا من الإمساك بمن يريدون، فقد ارتكب هدبة بن الخشرم جناية، وفرّ هارباً، فلم تتوان السلطة عن حبس أهله، فاضطر للعودة وتمكين نفسه للسلطة مكرهاً(الديوان: ٢). وقد استمر يزيد على نهج سابقيه في اتخاذ السجون وحبس المخالفين، فقد قبض عدي بن أرطأة على أهل يزيد بن المهلب، بعد هروبه من السجن، كما حمل له من نساء المهلب

خمسين امرأة، فحبسهن يزيد بدمشق (اليعقوبي : ٢/ ٣٠٨-٣١١).

وربما كان الحجاج يبالغ في إيذاء السجناء جسديا ونفسيا، بأن يتركهم في الحر اللاهب والبرد القارس، زيادة على ما هم فيه، يضجون مرارة وألما، فقد خرج في يوم لصلاة الجمعة، فسمع ضجة فقال؟ ما هذا؟ فقيل له: " المحبوسون يضجون، ويشكون ما هم فيه من البلاء ومن شدة الحر " (المسعودي: ٣/ ٣٧٥). قال جَحدَر، وقد حبس ببيضاء البصرة في المُخيس:

أَقُولُ لَلصّحبِ فِي البِيضَاءَ دُونَكُم — مَحَلـةٌ سـوّدت بَـيضَـاءَ أقطـارِي

مَــأوَى الفُتـوَّة للأنذَالِ مُــذ خُلِقَتْ — عِـنـدَ الـكِـرَامِ مَـحـلّ الـذّلِ وَالــعَـارِ

(القيسي: ١/ ١٧٧)

وقال:

إنّ الـهُمُــومَ إذَا عَــادَتـكَ وَارِدَة — إنْ لَـم تُـفَرّج لَـهَا وردٌ بِـإصـدَارِ

كَانَتْ عَلَيكَ سَقَاماً تَستَكِينُ لَهُ — وَأَنصَبَتكَ لِحَاجَـاتٍ وَإذكَـارِ

(القيسي:١/ ١٧٥)

إن الإنسان الذي وطن نفسه على الانطلاق الرحب بالفكر والعاطفة والحركة والخيال، دون قيد أو شرط، يفعل ما يريد، وكيفما يريد، لا يستطيع التوفيق بين ما كان، وبين ما هو كائن من أنظمة الخضوع المطلق، والتحديد الضيق الذي فرضته عليه تقاليد السجن وصرامة السجان، ومراقبته له، فقد تكالبت عليه الهموم، حتى استكنت وتمكنت من نفسه وكلمة الهمّ بمعناها المطلق، تكررت كثيرا عندهم، يقول نصر بن سيار:

إنْ أَكُن مُوثَقاً أَسِيراً لَدَيهِم — فِـي هُـمُـومٍ وَكـربَـةٍ وَسـهـومِ

(الديوان: ٤٦)

حتى أن الشاعر – أحيانا – لا يعرف ما مصير هذه النفس، وماذا ينتظرها، وكأن التساؤل عملية صراع داخلي، جاء في صورة حوار داخلي خفي، فهو لم يستقر على حال؛ لأنه لم يجد الإجابة على ما يدور في نفسه، فكان في همٍّ وصراع دائمين، قال السمهري العُكَلِي:

لَقَد جَمَع الحَدّادُ بَينَ عُصَابَةٍ — تَسَاءَلُ فِي الأسجَانِ مَاذَا ذُنُوبُهَا

(القيسي:١/ ١٤١)

وهذا الحوار، بحيرة وقلق، ينازع نفسه، وهو ينتظر ما سيحل به، وكأن الأمل معقودٌ على المكان الذي دخل منه، وهو الباب، فهو مفتاح الأمل والفرج، لذلك لا نستغرب أن تكون نظراتهم متعلقة به، عند كل حركة أو صوت حوله، إذ التقت عنده آمال السجناء، فهو الصورة

المركزية لكل المطامح المنتظرة والنهايات المرتقبة، منه يطل الأمل القادر على خلق المعجزة، وتحويل اليأس إلى أمل، ومنه تمر لحظات الموت، وهو يحمل القدر المحدد والأجل الذي دنت ساعته، وفي إطار هذه التصورات والمشاعر والمخاوف والآمال، كانت تتعالى وتتداخل، خلال هذه النفس القلقة، أشباح الألم والأمل، وصور الترقب، ولمحات الكآبة، وهي تأخذ مواضعها غير الطبيعية في نفسه أو فكره، يقول العرجي:

أُجَرّرُ فِي الجَوامِعِ كُلَّ يَوْمٍ   أَلا لـلـهِ مَظلَمتي وَصَبرِي

(الديوان:١٣٤-١٣٥).

فقد صاحب الشعور بالضيق في السجن، حالة من الفزع والخوف والقلق، كان يعانيها السجين، وكان لا بد من محاولة للخروج مما هو فيه، والتخلص من هذا المكان، وهذه المحاولة مصحوبة بالرجاء والأمل؛ لتستطيع أن تأخذ مكانها عند أصحاب الشأن الذين يستعطفهم، وأن تكون الصورة المرسومة للأوضاع التي كان يعانيها صورة فيها شيء من إظهار جوانب الأذى النفسي والجسمي، داخليا، ما حل بجسده ونفسه، وخارجيا، ما أصاب بيته وأهله ومحارمه، قال ابن الحر:

هُم هَدَمُوا دَارِي وَقَادُوا حَلِيلَتِي   إِلَى سِجنِهم وَالمسلمونَ شُهُودِي
وَهُم أعجَلوهَا أن تَشدّ خِمَارَهَا   فَيَا عَجَباً هَل الزّمَانُ مَقِيدِي

(القيسي:١/١٠٢)

وظلت أسماء السجون وصفاتها وذكرياتها ركيزة؛ لإثارة المشاعر الحادة في تصوير أوضاعها، فقد ظل دوّار وديماس اللذان احتضنا جحدر بن معاوية، علامة من علامات الخوف المفزعة في شعره، فتركت آلام السجن وعذاباته، ألوانا واضحة في شعره، وعرض له أكثر من مرة في شعره (القيسي: ١/ ١٧٣، ١٧٢، ١٧٦، ١٨١).

والوثاق والقيد من الموضوعات الشعرية التي وقف عندها شعر السجون، إلى جانب صور القلق النفسي الذي كان يستحوذ على السجناء، وهم في حالة الوثاق والتقييد، وهم يعيشون في هذا العالم الذي أغلقت أبوابه وأحكمت حراسته، وقد امتلأت قلوبهم بكل ما يوحي بالخوف، ويشعر بالفزع والتوجس، وقد شدت العيون بالأبواب، حتى إذا قعقع الحارس بابا، ارتعدت فرائصهم، واشتد خوفهم، وطارت قلوبهم؛ لارتباط حركة فتح الباب بتنفيذ حكم، أو بداية تعذيب، وهي حالة يدركها من دخل السجن، أو سيق إليه، تحت ظروف معينة، قال السمهري:

إِذَا حَـــرَسِيٌّ قَعقَـــعَ البَــابَ أُرعِدَتْ   فَـرَائِـصُ أَقــوَامٍ وَطَــارَت قُلُـوبُـهَا
تَرَى البَابَ لا تَستَطيعُ شَيئاً وَرَاءَهُ   كَـأَنّـا قِـنِـيٌّ أَسـلَـمَـتـهَا كُـعـوبُـهَا

(القيسي:١/ ١٤١)

وكأن السجين يحاول أن يرسم من خلال ذلك لوحة متميزة للسجن الذي سد مخرجه بباب محكم كبير، أقفل بقفل أمين، وقد طوقته الأصفاد، وحلقت عيونه بالأبواب الكبيرة، وكان لصرير الأبواب وقع في نفوسهم، فإذا تحركت مدت إليها الأعناق والأبصار، بتلهف شديد وجوارح مرتعدة؛ لأن فتح الباب يعني أحد أمرين، إما الحرية، والخروج من السجن، وإما العذاب والموت، فقد شغلت أبواب السجن وصفاتها مساحات كبيرة، يقول جحدر بن معاوية:

إِذَا تَحرّكَ بَابُ السّجنِ قَامَ لَهُ   قَـومٌ يَمُـدّونَ أَعـنَـاقـاً وَأَبـصَـارَا

(القيسي:١٧٤)

والباب في حديثهم له أشكال وصفات عدة، فهو دائما عالٍ وكبير ومحكم، وخلف كل صفة من هذه الصفات، تختفي لواعج الهموم التي أضفتها هذه الصفة أو تلك؛ لتحول دون انتقالهم أو تطلعهم أو فرارهم، وصريره له نغمات في آذانهم؛ اقترانه بصور الرعب القاتلة التي يوحيه هذا الصرير، إن صورة السجن كانت تقترن في نفوسهم بكثير من الأحزان التي يعانونها، والسجن لا يعني فقط المكان، ولكنه يمثل أيضاً ظلم السّجان دون رحمة، ومعاملته معاملة قاسية، لا تعرف شفقة، يضاف إليهما الحرمان من الأهل أو اللقاء بهم، مما تفرضهما عليهم أوامر السجن، مثل منع الزّوار، وما يثيره تثيره سلوك السّجان من مخاوف، كل هذه الأمور، بقيت محفورة في ذهن السجين، قال جحدر بن معاوية:

سِجنٌ يُلاقِي أَهلهُ مِن خَوفِهِ   أَزَلاً وَيَمـنَـعُ مِـنـهُـم الـــزّوّار

(القيسي: ١/ ١٧٣)

ويقول نصر بن سيار:

إِنْ أَكُن مُوثَقاً أَسِيراً لَدَيهِم   فِـي هُـمُـومٍ وَكُـربَـةٍ وَسـهـومِ
رَهنَ قَســرٍ فَمَا وَجدت بَلاء   كَـأَسَــارِ الـكِـرامِ عِـنـدَ اللـئيـمِ

(الديوان: ٤٦)

فالنفس الإنسانية التي حرصت على الجرأة، أقدمت على اجتياز ما يعجز عنه الآخرون، وحرصت أيضا على تصوير الحالة التي وضعت فيها، ومتابعة ما يصيب هذه النفس، وهي في

أشد حالاتها ذعراً، فمن ألوان التعذيب النفسي أن السجان كان غالبا من غير العرب، خوفا من أن تكون هناك علاقة دم أو قرابه بينهما، وحتى لا يستطيع الشخص المسجون أن يحاججه أو يحاوره أو يجادله، أو يتفاهم معه، قال ابن مفرغ:

حَيِّ ذَا الزَّورِ وَانهَهُ أَنْ يَعُودَا   أَنَّ بِالبَابِ حَارِسِينِ قُعُودَا

مِن أَسَاوِيرَ لا يَنوُونَ قِيَامَا   وَخَلاخِيلَ تُسهِرُ المَولُودَا

وَطَمَاطِيمَ مِن سَبابيجَ غُتمٍ   يُلبِسونِي مَعَ الصَّباحِ قُيُودَا

(الديوان :٥٧)

وقال القتال الكلابي:

إِذَا شِئْتَ غَنَّتنِي القُيودُ وَسَاقَنِي   إِلى السِّجنِ أَعلاجُ الأميرِ الطّمَاطِمِ

(الديوان:٦٣)

معاملة السجين:

تفاوتت معاملة السجناء من خليفة إلى آخر، ومن وال إلى آخر، في عهد معاوية مثلا، كان تباين بين إلباسهم جباب الصوف وإلزامهم العمل، (البلاذري: ٤٥٦-٤٥٧)واستخدامهم مقاتلين وجنوداً في جيوش الأمويين؛ لفتح المناطق الجديدة، فقد أرسل معاوية، سعد بن عثمان إلى زياد بن أبيه؛ ليختار من أهل السجون والدعارة من يصلح للحرب، فأخذ سعيد منهم أربعة آلاف رجل. (ابن أعثم: ٢ / ٣١١).

وكان الحجاج يخصص لأهل السجن ماء خاصا، يخلط فيه الماء بالملح والرماد (التنوخي: ١/ ٤٠١)، أما طعامهم فقد كان رديئاً للغاية، يتألف من دقيق الشعير مخلوطاً بالرماد(المسعودي: ٢٧٥)، قال إبراهيم التيمي: لما حبست الحبسة المشهورة، أدخلت السجن، فأنزلت على أناس في قيد واحد، وكان ضيقا لا يضع الرجل إلا موضع محله، وفيه يأكلون، وفيه يتغوطون، وفيه يصلون (التنوخي: ١/ ٢٠٦). وكان الناس أحياناً يحبسون جماعات في المسجد أو الأماكن العامة، كما فعل الأمويون بجماعة زيد بن علي بن أبي طالب. (الأصفهاني: ١٣٧)

وفي بعض الأحيان كان يسمح لبعض السجناء، الذين يحملون صفة خاصة من المقربين والعمال، بتناول الطعام حسب رغبتهم، فكان يجلب لهم من خارج السجن، ويزيد بن المهلب وأخوته خير مثال على ذلك، وكان بعضهم ينعم بمزايا خاصة وطعام خاص، وبالتالي سينعكس على صحته (البيان والتبيين: ١/ ٣٧٦-٣٧٧)، قال الحجاج للغضبان حين خرج من ديماسه: سَمِنت، قال: أسمنني القيد والرَّتَعَة(الزمخشري: مادة رَتَعَ)، ولكن ابن مفرغ يقول:

وجرعتها صهباء من غير لذة تصعد في الجثمان ثم تصوب

وأطعمت ما إن لا يحل لآكل وصليت شرقا، بيت مكة مغرب

(الديوان: ٥٣)

يشير هنا إلى ما كان يأكله، وهو في السجن، روى ابن قتيبة أن ابن زياد حبس ابن مفرغ وعذبه، وسقاه التربذ في النبيذ (ابن قتيبة: ١/ ٢٧٧)، وقال أعشى همدان:

حبسوا بكابل يأكلون جيادهم بأضر منزلة وشر معوج

(الديوان:٩٣)

وقال القتال الكلابي:

إذا قلت:

رفهني من السجن ساعة تدارك بها نعمى عليّ وأفضل

(الديوان: ٧٦)

وفي المقابل فقد توفرت في بعض الأحيان وسائل التعليم والتثقيف لبعض السجناء، فقد حبس عمر بن عبد العزيز رجلاً، كان لا يحفظ من القرآن شيئاً؛ فوكّل له معلماً يعلمه القرآن، وما يجب عليه من حدود الطهارة والصلاة، وأجرى عليه في كل يوم ثلاثة دراهم، وعلى معلمه ثلاثة أخرى، وألا يخرج من الحبس حتى يحفظ القرآن (الأغاني: ٦/ ٨٧).

وعن الواقدي أيضاً، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر، عمرو بن حزم: " أن يعرض أهل السجن في كل سبت، ويستوثق أهل الذعارات " كما كتب عمر إلى عبد الحميد في أهل الذعارات: " أن يلزمهم السجن، ويكسوها طاقماً في الشتاء وثوبين في الصيف، وكذا وكذا في مصلحتهم "، وكتب إلى عماله: " ألا يغل مسجون "، وكتب لهم أيضاً: " أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه، فإذا سكن غضبك، فأمر بمعاقبته على قدر ذنبه " كما أمر بعض ولاته إطلاق السجناء لديهم، فقد كتب إلى وضّاح بن خيثمة بإخراج كل من سجنه، عدا يزيد بن أبي مسلم. وكان يسمح للناس أحيانا بلقاء السجين، فقد كان سلم بن زياد أموي الهوى، منظرا لهم وبقوة، فحبسه ابن الزبير، فدخل عليه الفرزدق، وهو في سجنه، فسأله، وأعطاه، فلامته زوجته على إنفاق المال، وهو وأهله على تلك الحالة، فقال شعرا يبرر موقفه هذا(الأغاني ٨/ ١٨٣).

الخروج من السجن:

لم يكن هناك مدة محددة يقضيها السجين في السجن، يقضيها ثم يخرج، فقد كان هذا الأمر غير محدد بعامل معين، وغالباً ما تكون المدة غير محدودة، وخاصة في القضايا

السياسية، قال يزيد بن المفرغ الحميري:

وأطلتُم مَع العقوبةِ سَجنِي فَكم السّجنُ أو مَتَى إرسَالِي

(الديوان:١٨٨)

روى التنوخي فقال: حدثنا توبة العنبري فقال: أكرهني يوسف بن عمر على العمل، فقيدني، فما زلت في السجن، حتى لم يبق من رأسي شعرة سوداء. (التنوخي: ٢/ ٢٢٨-٢٢٩). فقد كانت تتراوح ما بين الأيام المعدودة أو الشهور، وقد تصل إلى سنين(المسعودي: ٣/ ٣٧٥)، وقد يموت المحبوس في سجنه، فقد حُبس الغضبان القبعثري ثلاث سنين، وتوفي الحكم بن المنذر بن الجارود في سجن الحجاج بواسط (ابن قتيبة: ٣٣٩)، ومكث العرجي في سجن محمد بن هشام نحوا من تسع سنين حتى مات فيه (الأصفهاني: ١/ ٣١٦). قال جحدر:

تأوَّبني فبِتُّ لها كَنيعاً هُمومٌ لا تُفارِقَني حَواني

فما بين التَفرُّق غّيرَ سبع بقين من المُحَرم أو ثمان

(القيسي:١/ ١٨٥)

وقال:

يا نفس لا تجزعي إنّي إلى أَمدٍ وكلّ نفسٍ إلى يَومٍ وَمِقدار

(القيسي:١/ ١٧٥)

بالغت بعض الروايات في تحديد عدد الأشخاص الذين كانوا في سجن الحجاج عند وفاته، فقد أورد بعض المؤرخين أن عدد السجناء كان خمسين ألف رجل وعشرين ألف امرأة محبوسين بغير جرم، وفي رواية ثانية ثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشر ألف مجردة، وفي رواية ثالثة، أنه كان في سجون الحجاج ثلاثة وثلاثون ألفاً، لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب (لتنوخي: ١/ ٢٦١).

كان خروج السجين متعلقاً بأكثر من عامل، كأن يخرج المحبوس هرباً أو بعد عفو أو احتيالاً، مثل هرب يزيد بن المهلب وإخوته من السجن، الذين استجاروا بعد هربهم بسليمان بن عبد الملك فأجارهم، كما هرب أعشى همدان، وكان ممن أغزاه الحجاج إلى الديلم، فقبض عليه هناك، وحبس، فهرب، بمساعدة ابنة العلج؛ لإعجابها به(التنوخي: ٢/ ١٢٢-١٢٣)، وقد يُطلق السجناء بعد تولي والٍ جديد أو خليفة جديد، فعندما توفي الحجاج، أطلق من كان في سجونه، بعد أن طلب منهم كفلاء يكفلونهم، فقد أطلق من سجن الحجاج الحرورية

بعد وفاته(التنوخي : ٢/ ١٦٠-١٦١) . وقد يخرج السجين؛ بسبب كلمة يقولها أمام الوالي، فتعجب هذه الكلمة الوالي، فيأمر بإطلاق سراحه (التنوخي : ٤/ ١٢١)، أو بسبب موقف أخلاقي إنساني، يكشف عن نفسية هذا الإنسان(السابق : ٤/ ١٢٢).

فأصحاب المعارضة الذين زج بهم إلى السجن، كانوا يخرجون -أحياناً- بطرق مختلفة، كأن يقتحم الناس السجن ويخرجون من فيه، كما حصل مع عبيد الله بن الحر الذي كسر السجن وأخرج زوجته ومن كان فيه(القيسي : ٧٠)، وكذلك موت الخليفة، فإذا مات الخليفة، كان الخليفة التالي له، يأمر بإطلاق السجناء، كما فعل عمربن عبد العزيز، إذ أمر بإطلاق من في السجن كافة إلا يزيد ابن أبي مسلم (التنوخي : ١/ ٢٩٢)، وقد يخرج المسجون بالهرب، كما فعل عمر بن هبيره، هرب من السجن بوساطة أعوانه، فقال الفرزدق أبياتاً صور فيها طريقة هروبه من السجن، يقول :

ولما رأيت الأرض قد سُـد ظهرها ... ولم تر إلا بطنها لك مخرجا

دعوت الذي ناداه يونس بعدما ... ثوى في ثلاث مظلماتٍ، ففرجا

فأصبحت تحت الأرض قد سرت ليلةً ... وما سار سارٍ مثلها حين أدلجا

هُما ظُلمتا ليلٍ وأرضٍ تلاقتا ... على جامحٍ من أمره ما تعرَّجا

(الديوان، ١/١١٧)

كذلك كان للفرزدق فضل تصوير هروب بعض المؤيدين ليزيد بن المهلب من سجن الحجاج ولجوئه إلى سليمان بن عبد الملك، يقول :

جَلَوْا عن عيون قد كرين كلا ... ولامع الصبح إذ نادى أذان المثِّوبِ

على كل حرجوج كأن صريفها ... إذا اصطك ناباها ترنُّم أخطَبِ

(الديوان:١/ ٢٠).

ومن الذين هربوا من السجن أيضا، القتال الكلابي، فقد قتل السجان، وفرّ هارباً، فقال :

أقول له والسيف يعصب رأسه ... أنا ابن أبي أسماء غير التنحُّل

عرفت نَداي من نداه وجرأتي ... وريحاً تغشّاني إذا اشتد مسحلي

تركت عتاق الطير تحجل حوله ... على عدواء كالحوار المجدَّلِ

(الديوان: ٧٦)

وكان السمهري العكلي فأوثق في رجليه ملحفة، فألقى بنفسه من فوق السجن، فحملته

الريح حتى سقط، فانكسرت قيوده وهرب، فقال:

ولما استوت رجلاي في الأرض قلصت نـعـامـةُ ذي كبلـين لـلشـر حـاذر

(القيسي: ١/ ١٤٤)

وعندما تولى يزيد بن عبدالملك الخلافة، عزل محمد بن يزيد، والي عمر بن عبدالعزيز على إفريقيا، وولّى يزيد ابن أبي مسلم كاتب الحجاج، فلما ورد يزيد إفريقيا، سجن محمد بن يزيد وتسلط عليه. . . إلا أن الناس ثاروا عليه، وقتلوه، وأخرجوا محمداً من سجنه(التنوخي: ٢/ ١٤٤-١٤٥). أما ابن مفرغ فقد حمي له قومه من اليمانية، فكلموا فيه معاوية، حتى أرسل في الإفراج عنه وتسريحه(أنساب الأشراف: ٥/ ٧٧-٨٠)

طيف المحبوبة:

لم يكن ذكر المرأة وصفاتها بالجديد في شعر هذه المرحلة، فكانت المرأة ملازمة للرجل في حله وترحاله وفي سلمه وحربه، وكان الشاعر في تلك الحالة، يستحضر خيالها وطيفها، يؤنس بها وحدته، ويبدد بوجودها وحديثها وحشته، لذلك كانت مشاعره، وفقدان الاستقرار النفسي وغموض المستقبل، وفقدان الحماية والشعور بانعدام الغاية من الحياة والأمل فيها، عوامل ملحة في شعره، وكانت المرأة هي مصدر الأمل والأمن، وكان طيفها مشعاً مفعماً بمعاني الحياة، استلهمها الشعراء في السجون بشكل خاص، إذ تلح المرأة بطيفها الجميل، تتخطى الحواجز والقضبان، تطوي القفار والصحارى الشاسعة، من أجل الوصول إليهم، هذا التضاد في الحركة، يثري صور شعراء السجون، يقول ابن الزَّبير الأسدي:

ألا ليت شعري هل أتـى أم واصـل كُـبُـول أعـضـوهـا بـسـاقـيَّ تجـرح

إذا ما صرفت الكعب صاحت كأنها صـريـف خطاطيف بدَلـويـن تمتح

(الديوان:٦٧)

ويقول السمهري العكلي، وهو في السجن:

ألا طرقت ليلى وساقي رهينة بـأشـهب مـشـدودٍ علـيّ مسـامرُه

فإن أنجُ يا ليلى فرُبَّ فتى نجا وإن تكن الأخـرى فشيء أحـاذره

(القيسي:١/ ١٤٣)

فقد سكن لسانه ونطقت جوارحه، بعد أن كتب عليها السجن والقيد، وقد اتضحت أدلة هذه الجوارح من خلال ألفاظ وأصوات، ارتبطت بصور السجن والسجان والأبواب المنيعة

التي كانت تحول دون خروجهم، والقيود الثقيلة التي كانوا يكبلون بها، فكانت المرأة الوسيلة المساندة، والدافع إلى قوة العزيمة والإرادة، قال ابن مفرغ :

دار سلمى بالخبت ذي الأطلال   كيف نوم الأسير في الأغلال

(الديوان: ١٨٥)

وسيطر على نفسه بجانب المرأة، صور الأهل والأحبة، وأطياف اللواتي تتألق صورهن في ذهنه، حبا واشتياقاً ولوعة، جاء هذا في أشد اللحظات حرجاً، فالهموم التي يحملها صرير الباب، والتحرك البطيء حوله، وما يسمعه من أصوات قريبة منه، والاندفاع الذي يعقب هذه الأشياء، وما يطوف في رحابها من معان وأخيلة ولمحات، يجعل النفوس تشرئب إلى خالقها ؛ لتعرف شيئا عن مصيرها في تلك اللحظة، يقول طهمان الكلابي :

لعلك بعد القيد والسجن أن ترى   تمر على ليلى وأنت طليق

(الديوان: ١٩)

ويظهر طيف المحبوبة في شعر السجين بشكل واضح، فهي تمثل الحبيبة، والفرح والمستقبل المشرق الذي يطرق مشاعره، ثم لا يلبث أن يتحطم على أرض الواقع، وتقابله الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها، وهي انتظار تنفيذ حكم قاس، قد يصل للقتل أو العفو أوالأمل والمستقبل الجديد، ويظل طيفها يحوم حول سجنه، يستعذب بلقاء الأحلام جفاء الواقع، تقترب لغته اقترابا شديداً من لغة العذريين وصورهم، برقتها وعذوبتها وفشلها المتكرر، وكأنها المحبوبة والأم والأخت والأنيسة والسلوة في هذه المحنة، يقول السمهري العكلي :

ألا حيّ ليلى قد ألمَّ لمامها   وكيف مع القوم الأعادي كلامُها

تعلل بليلى إنما أنت هامةٌ   من الهام يدنو كلَّ يوم حمامها

لقد طرقت ليلى ورجلي رهينة   فما راعني في السجن إلاّ سلامها

فلما أرفقت للخيال الذي سرى   إذا الأرض قفر قد علاها قتامها

فقلت نساء الجن هوَّلنها لنا   ليحزن عيناً ما يجف سجامها

(القيسي: ١/١٤٥-١٤٦)

فالعلاقة بين الشاعر والمحبوبة تعد معادلا موضوعيا داخل البناء الشعري، للعلاقة القائمة بين فئتين متناحرتين، بمعنى أن الصلة بين الشاعر وطيف المحبوبة، مدخل يتيح للشاعر عرض محنته العامة داخل الشعر، وسرعان ما تجاوز الشاعر هذه الصلة الذاتية الصغرى للحديث عما أصابه.

وتختلط الحقيقة بالخيال، فترتبط صورة المحبوبة بالمكان والزمان، بشكل مفعم بكل صور الانفعالات، تختلط الحياة بالموت، الأمل بالفناء، الجماد بالأحياء، كل ما تحتويه الأرض وتضمه بين أحضانها، يقول السمهري العكلي:

ونُبئت ليلى بالغربيين سلمت ... عليَّ ودوني طخمة فرجامها

فإن التي أهدت على نأي دارها ... سلاماً لمردود عليّ سلامها

عديد الحصى والأثل من بطن بيشة ... وطرفائها ما دام فيها حمامها

ألا ليتنا نحيا جميعاً بغبطةٍ ... وتبلى عظامي حين تبلى عظامها

كذلك ما كان المُحبون قبلنا ... إذا مات موتها تزاور هامها

(القيسي: ١/١٤٧-١٤٨)

وإذا لم يجد الشاعر- كعادته في حالات الضجر التي مرت عليه- أفضل من طيف المحبوبة أملاً وسلوة، فسرعان ما يدرك خيبة هذا الأمل وهذه السلوة، وقال السمهري أيضا:

ألا طرقت ليلى وساقي رهينة ... بأسمر مشدود الوثاق ثقيل

فما البين يا سلمى بأن تشحط النوى ... ولكن بينا ما يريد عقيلُ

فإن أنجُ منها أنجُ من ذي عظيمة ... وإن تكُن الأخرى فتلك سبيل

(القيسي: ١/١٤٨)

لقد قدم السجين كثيراً من الصور التي قرنها بطروق محبوبته، وهو طروق أوحته له طبيعة الحياة المؤلمةالتي يحياها، ومن الطبيعي أن يكون هو خيالها، فهو يستمد منه قوته وعزيمته، قال السمهري:

تمنت سُليمَى أن أَقيل بأرضها ... وإني لسلمى وَبَيها ما تَمنَّتِ

ألا ليت شعري هل أزورنّ ساجراً ... وقد رويت ماء الغوادي وعلّت

(القيسي: ١/١٤٢-١٤٣)

ومن الطبيعي أن يشتد اليأس في نفس السجين، وهو يمكث هذه المدة في سجنه حتى يصل به اليأس إلى الاستسلام لأحكام القدر الذي كتب عليه، وفي هذه الحالة اليائسة تطرقه المحبوبة، ويعقد المقارنة التي كان يقصد إليها من حديثه، فالطروق عنده يُصاحب ذكر القيد الذي شُدّت به ساقه، ويميل إلى إيضاح الصورة، ببيان ثقل القيد الذي وضع عليه، قال القتال الكلابي:

أُمَيمَ أثيبي قبل جِدّ التَّزَيُّل ... أثيبي بوصلٍ أو بصرم معجّلِ

(الديوان: ٧٣)

الخاتمة:

إن دراسة شعر السجون يعكس أكثر من جانب لدارسي الأدب العربي والتراث العربي، من خلال قراءة نصوصه، وهي التي أفرزتها بعض الأحداث والوقائع، التي لا تخلو أن تكون ذات خطر آنذاك، ومنها: إن هذا الشعر ربما كان مصدراً من مصادر المعرفة التوثيقية شبه التاريخية، فكل نص من نصوصه قيل أو خط في مناسبة ما، كان سبباً في إدخال صاحبه إلى السجن، وأغلب هذه المناسبات مرتبط بأحداث سياسية، ثم إن هذه النصوص ربما كانت مصدراً من مصادر الحالات النفسية، التي يمكن أن تكون غرضاً للدراسات النفسية من منظور علمي حديث.

ويعد شعر السجون جزءا من الآثار التي تكشف عن عالم السجن وخفاياه، بكل ما فيه من ويلات وأهوال ومعاناة، وما خلفه ذلك من تأثير على من ابتلي به، نفسياً وجسدياً واجتماعياً، ذلك أن هذا الشعر قد خط أوقيل – معظمه – بين جدران السجن القاتمة، وفي سراديبه المعتمة، أو ربما نطق به سجين أمام الحاكم أو الوالي، أو في لحظات عمره الأخيرة، أو ربما كتبه أحدهم في الاستتار، ذلك أن الاستتار كالسجن، فيما يلحق بالمستتر من الخوف وتوقع القتل، مع كل طرقة باب، وفرقعة سوط، فلا يعود المستتر يأمن أخاه، أو يسكن إلى جاره، وتغدو حياته عبئاً ثقيلاً ويحيق به عذاب النفس وتضيق به الدنيا على اتساعها، حتى لا يرى مخرجاً من كل هذا إلا باستعطاف وليه واسترحام غريمه، فإما أن يؤخذ بذنبه، إن كان له ذنب، وإما أن يعفى عنه فيستريح، لهذا كله جاء شعر السجون متنوع الأغراض والموضوعات، فنقرؤه مرة شعر استعطاف ورجاءٍ وعفو، ومرة أخرى شعر إقرار بالذنب وإظهار الندم، أو هو شعر عتاب ولوم، وبخاصةً لوم الأصدقاء، أو هو شعر تأمل ومناجاة للنفس والوجدان، ويختلط بذلك كله شكوى من سوء الحال وقسوة السجن وألمه، ومعاناة النفس، وهو في النهاية يشكل جزءا مهما من تراثنا العربي القديم.

المصادر والمراجع

أ- الدواوين والمجموعات الشعرية

١- ديوان الأخطل، تحقيق فخرالدين قباوة، دار الآفاق، بيروت، ١٩٧٠ .
٢- ديوان الأعشى، تحقيق كامل سليمان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٣. د. ت .
٣- ديوان أعشى همدان، تحقيق حسن أبو ياسين، الرياض، ١٩٨٣ .
٤- شعراء أمويون، تحقيق نوري حمودي القيسي، الجزء الأول، ط مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل، د. ت .
٥-شعراء أمويون، تحقيق نوري حمودي القيسي، الجزء الثاني، ط مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل، ط١ ، ١٩٧٦
٦- ديوان امرىء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار المعارف، مصر .
٧- شعر الخوارج، تحقيق إحسان عباس، ط دار الثقافة، ١٩٧٤ .
٨- ديوان الحطيئة، ط المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د. ت .
٩- ديوان الراعي النميري، تحقيق راينهرت، بيروت، ١٩٨٠ .
١٠- ديوان طهمان بن عمرو الكلابي، تحقيق محمد جبار، بغداد، ١٩٦٨ .
١١- شعر عبدالله بن الزَّبير الأسدي، تحقيق يحيى الجبوري، العراق، ١٩٧٤ .
١٢- ديوان عبدالله بن همام السلولي، تحقيق نوري القيسي، الرياض، ١٩٨٨ .
١٣- ديوان عمرو بن أحمر الباهلي، تحقيق حسين عطوان، دمشق، د، ت .
١٤- ديوان العرجي، تحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي، ط الشركة الإسلامية للطباعة والنشر، بغداد، ط١ ، ١٩٥٦ .
١٥- ديوان عمرو بن أحمر الباهلي، تحقيق حسين عطوان، دمشق، د، ت .
١٦- ديوان القتال الكلابي، تحقيق إحسان عباس، دار المعارق، بيروت، ١٩٦١ .
١٧ - ديوان كثيِّر، شرح عدنان درويش، ط دار صادر، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٤ .
١٨- ديوان الفرزدق، ط دار صادر، بيروت، د. ت .
١٩- ديوان هدبة بن الخشرم، تحقيق يحيى الجبوري، ط دار القلم، الكويت، ط ٢ ، ١٩٨٦ .
٢٠- ديوان الوليد بن يزيد، تحقيق واضح عبدالصمد، ط دار صادر، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٨ .

٢١- ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، تحقيق عبدالقدوس أبو صالح، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥ .
٢٢- المفضليات، المفضل الضبي، شرح التبريزي، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٧٧ .
٢٣- نقائض جرير والفرزدق، ط بريل، ١٩٠٧ .
٢٤- الوحشيات، تحقيق عبدالعزيز الميمني، ط دار المعارف، مصر، ١٩٦٣ .

ب- المصادر القديمة:

١- القرآن الكريم .
٢- الكتاب المقدس ، العهد القديم .
٣- ابن أعثم ، أحمد ، الفتوح ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٦ .
٤- ابن الأثير ، عز الدين ، اللباب في تهذيب الأنساب ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ.
٥- الأصفهاني ، أبو الفرج ، مقاتل الطالبين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ، ١٩٤٩ .
٦- الأصفهاني ، الأغاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٩٧ .
٧- البلاذري ، يحيى بن جابر ، أنساب الأشراف ، مكتبة المثنى ، بغداد ، د. ت .
٨- البغدادي ، أبو علي إسماعيل ، كتاب ذيل الأمالي والنوادر ، ط ٣ ، د. ت .
٩- التنوخي ، القاضي ، كتاب الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي ، ط دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٨ .
١٠- الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، ط دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧ .
١١- ابن خلكان القاضي شمس الدين ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، ط دار صادر ، بيروت ، د. ت .
١٢- الزمخشري ، أساس البلاغة .
١٣- الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف ، مصر .
١٤- ابن طلاع ، المالكي ، أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحقيق محمد ضياء الرحمن الأعظمي ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
١٥- ابن عبد ربه ، شهاب الدين ، العقد الفريد ،
١٦- العسقلاني ، ابن حجر ، الإصابة في تمييز الصحابة ، مصر ، ١٣٣٩ هـ.
١٧- ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة .
١٨- ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم ، المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، ط دار المعارف ، مصر ، ط ٤ ، ١٩٨١ .
١٩- ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، ط دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤ .
٢٠- المقريزي ، تقي الدين ، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ، تحقيق حسين مؤنس ، ط دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٨ .

٢١- المبرد، أبو العباس، الكامل، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط الفجالة، مصر .
٢٢- المسعودي، التنبيه والإشراف، ط دار التراث، بيروت، ١٩٦٨ .
٢٣- المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط دار الرجاء، مصر، د. ت .
٢٤- ابن منظور، لسان العرب
٢٥- ابن هشام السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت
٢٦- اليعقوبي، أحمد، تاريخ اليعقوبي، ط دار صادر، بيروت، ١٩٦٠

ج - المراجع الحديثة:

١- أحمد، محمد فنوح، الشعر الأموي، ط دار المعارف، مصر، ١٩٩١ .

٢- البزرة، أحمد، الأسر والسجن في شعر العرب، دمشق، ط ١، ١٩٨٥ .

٣- الحوفي، أحمد، أدب السياسة في العصر الأموي، طار القلم، بيروت، ط ١، ١٩٦٥ .

٤- الخطيب، رشا، تجربة السجن في الشعر الأندلسي، ط المجمع الثقافي، أبو ظبي، طا، ١٩٩٩ .

٥- خليف، مي، أبعاد الإلتزام في القصيدة الأموية، ط دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨ .

٦- رواقه، إنعام، الحياة الإقتصادية واثرها في الشعر الأموي، عمان، ط١، ٢٠٠٢

٧- سعد، محمد علي، الأحوص بن محمد الأنصاري " حياته وشعره " ط دارالآفاق، بيروت، ط١، ١٩٨٢ .

٨- السويدي، فاطمة، الاغتراب في الشعر الأموي، ط مدبولي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧ .

٩- شلبي، الوحدة في شعر ابن قيس الرقيات، ط١، القاهرة، د.ت.

١٠- أبو شماله، فايز، السجن في الشعر الفلسطيني(١٩٦٧-٢٠٠١)، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، رام الله، ط١، ٢٠٠٣ .

١١- عطوان، حسين، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، ط دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٨٧ .

١٢- فهمي، عزيز، المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول، تحقيق، محمد قنديل، ط دار المعارف، مصر، ١٩٨٠ .

١٣- القيسي، نوري حمودي، شعراء أمويون، الجزء الأول، منشورات جامعة الموصل، د.ت.

١٤- النص، إحسان، العصبية القبيلية وأثرها في الشعر الأموي، ط دار اليقظة، بيروت، د.ت.